أميلي نوتومب

رحلة الشتاء

مكتبة نوميديا 37
Telegram@ Numidia_Library

ترجمة
محمد عبد الكريم إبراهيم

دار علاء الدين

Amélie Nothomb

Le Voyage d'hiver

أميلي نوتومب

رحلة الشتاء

ترجمة

محمد عبد الكريم إبراهيم

منشورات دار علاء الدين

- رحلة الشتاء.
- تأليف: أميلي نوتومب.
- ترجمة: محمد عبد الكريم إبراهيم.
- الطبعة الأولى 2011.
- عدد النسخ 1000 نسخة.
- تمت الطباعة في دار علاء الدين.

- جميع الحقوق محفوظة.

هيئة التحرير في دار علاء الدين

الإدارة والإشراف العام: م. زويا ميخائيلينكو

المتابعة الفنية: أسامة راشد رحمة

الغلاف: أسعد عبد الجبار حسان

التدقيق اللغوي والإخراج: عقبة زيدان

دار علاء الدين

للنشر والتوزيع والترجمة

سورية - دمشق

ص. ب: 30598 هاتف: 5617071 فاكس: 5613241

Web: www.zoyaala-addin.com E-mail: ala-addin@mail.sy

ISBN: 978-9933-18-694-4

في المطارات، عندما أمر على نقاط التفتيش أشعر ككل الناس بتوتر أعصابي. تنطلق دوماً الرنة المعروفة "بيب" بسببي. ولهذا لم يحدث أن نجوت قط من التفتيش الكامل: أيدٍ بشرية تتحسسني من رأسي إلى أخمص قدميّ.

ذات يوم لم أستطع منع نفسي من أن أقول لهم: "أتظنون حقاً بأنني أريد تفجير الطائرة؟" . ما كان ينبغي قول ذلك، فقد أرغموني على نزع ثيابي. لا يُمزح مع مثل هؤلاء الناس.

اليوم، أمر على نقاط التفتيش، وأشعر بتوتر أعصابي. أعلم بأن الرنة المعروفة "بيب" ستنطلق، وبأن أيدٍ بشرية ستتحسسني من رأسي إلى أخمص قدميّ. لكنني هذه المرة سأفجر الطائرة التي ستقلع في الساعة الواحدة والنصف ظهراً.

اخترت رحلة من مطار شارل ديغول، ولم أختر رحلة من مطار أورلي. ولهذا الاختيار أسباب قوية جداً، فمطار شارل ديغول جميل وممتع على نحوٍ كبير، والوجهات التي تقصدها طائراته متنوعة وبعيدة، ومتاجره الحرة تقدم المزيد من الإمكانات، لكن السبب الرئيس هو وجود سيدات في مطار أورلي يشرفن على نظافة المراحيض.

ليست المشكلة في نقدهن أجراً مقابل قضاء حاجة، فالواحد منا لا تخلو جيبه مطلقاً من قطعة نقود. لكن ما لا أحتمله هو الالتقاء بالسيدة التي ستنظف ورائي. إن في هذا ذلاً لها ولي على حدٍ سواء، وليس من المبالغة في شيء حين أؤكد بأنني شخص ودود مع الآخرين.

قد اضطر اليوم للذهاب إلى المرحاض غير مرة. هذه هي المرة الأولى التي أستعد فيها لتفجير إحدى الطائرات، وستكون أيضاً هي المرة الأخيرة بما أنني سأكون على متنها. عبثاً رحت أبحث عن حلولٍ أكثر جدوى. لا غرو أن مثل هذا الفعل يقتضي الانتحار عند الإنسان العادي، أو الانتماء إلى شبكة منظمة، وهذا ليس من دأبي.

أفتقد روح المعاونة كما أفتقد روح الجماعة، ولست عاتباً على الجنس البشري في شيء. لديّ نزوع إلى الصداقة والحب، ولكن عندما أفعل شيئاً أنفرد به. كيف السبيل إلى القيام بأمورٍ عظيمة بصحبة شخصٍ يضع العراقيل في طريقك؟ هناك حالات ينبغي الاعتماد فيها على الذات ليس إلا.

ليس دقيقاً في ميعاده من يأتي باكراً. أنتمي أنا إلى هذه الفئة من الناس، إذ أخاف جداً الوصول متأخراً إلى مواعيدي، لذلك لا بد من أن أصل باكراً جداً.

اليوم، أحطم الرقم القياسي المسجل باسمي، فقد وصلت أمام الموظفة التي تسجل الأمتعة وتحجز المقاعد في الساعة الثامنة والنصف. عرضت عليّ تذكرة على متن الطائرة التي تقلع قبل طائرتي فلم أقبل. لا بأس عندي من الانتظار خمس ساعات بما أنني أحضرت معي مفكرتي وقلمي. نجحت حتى سن الأربعين في تفادي العار الذي تجرّه الكتابة، لكني اكتشفت بأن النشاط الإجرامي يغري بالكتابة. ليس هذا ذا أهمية مادمت أنا وكتاباتي سنصبح فور انفجار الطائرة أثراً بعد عين. وهكذا لن أضطر إلى إرسال مخطوطي إلى أحد الناشرين ليقرأه، مستجدياً رأيه بصورة مصطنعة.

حين مررت أمام المفتشين انطلقت الرنة "بيب" المعروفة. لأول مرة أضحك من ذلك. وكالعادة تلمستني أيدٍ بشرية من رأسي إلى أخمص قدميّ. أثرت الشكوك بضحكي، فقلت إنني أشعر بالدغدغة عندما يتلمسني أحد. وعندما فتشوا حقيبتي تفتيشاً دقيقاً، عضضتُ وجنتي من الداخل كيلا أضحك. لم أكن قد حصلتُ بعد على أدوات الجريمة التي اشتريتها لاحقاً من السوق الحرة.

تشير الساعة الآن إلى التاسعة والنصف. أمامي أربع ساعات لأشبع هذه الحاجة الغريبة، وهي كتابة ما لن يُتسنى له أن يُقرأ. يبدو أننا ساعة الموت نرى شريط حياتنا في غمضة عين. عما قريب سأعرف إن كان هذا صحيحاً. يعجبني هذا الاحتمال، ولا أحب أن أفوّت على نفسي أفضل ما في قصتي مهما كلفني ذلك.

إذا كنت أكتب، فربما لأعد عمل المونتير الذي سيختار اللقطات: تذكيره بأفضل اللحظات، ولفت انتباهه إلى تلك التي لن يكون لها أهمية في نظري.

وإذا كنت أكتب، فربما لخوفي من ألا يكون لهذا الفيلم الخاطف من وجود. لا يستبعد أن يكون مجرد كذبة، وأن نموت سريعاً من دون أن نرى شيئاً على الإطلاق. تحزّ في نفسي فكرة الموت من دون ذاك الارتعاش التذكاري. سأحاول، من باب الحيطة، أن أقدم لنفسي هذا الشريط المصور بوساطة الكتابة.

تحضرني هنا ابنة أخي أليسيا، وهي تبلغ من العمر أربعة عشر ربيعاً. تجلس هذه الصغيرة دوماً أمام قناة الـ MTV. قلت لها: إذا مت فسوف تشاهدين فيديو كليب يبدأ بأغنية "Take that" وينتهي بأغنية "Coldplay"، فابتسمت لي. سألتني أمها لماذا أتحرش بابنتها. إذا كان المزاح مع فتاة مراهقة هو بمثابة تحرش، فلا أكاد أجرؤ على تخيل التعبير الذي سوف تستخدمه زوجة أخي فور سماعها نبأ ضلوعي في قضية طائرة البوينغ ٧٤٧. يخطر في بالي هذا الأمر دون أدنى شك، فعمليات التفجير مناسبة ذهبية للقيل والقال ولوسائل الإعلام التي ليست سوى قيل وقال على مستوى البسيطة. لا يُقدم المرء على اختطاف طائرة لأنه يجد في ذلك متعة، وإنما ليشغل وسائل الإعلام.

إذا ألغيت وسائل الإعلام فسيجد جميع الإرهابيين أنفسهم عاطلين عن العمل. وهذا لن يحدث في المستقبل القريب.

في الساعة الثانية أو الثانية والنصف من بعد الظهر ستغطي وكالة الـ CNN ووكالة الـ AFP، وغيرهما أخباري. ها أنا أتخيل كيف سيبدو وجه زوجة أخي أمام نشرة أخبار الساعة الثامنة مساءً. "ألم أقل لك مراراً وتكراراً بأن أخاك مريض؟" أشعر بشيء من الفخر، فبفضلي ستشاهد أليسيا، لأول مرة في حياتها، محطة تلفزيونية غير الـ MTV ومع هذا لن أنجو من حقدهم. ليس من العبث أن أمنح نفسي من الآن متعة تخيلي للمشهد، إذ لن أكون على قيد الحياة لأتذوق الغضب الذي سأبوأ به. إن الطريقة المثلى لكي يتذوق المرء في حياته شهرة ينالها بعد موته هي استباقها بالكتابة.

أتصور ردود أفعال أبي وأمي حيالي. سيقول أبي: "كنت أعلم دائماً أن ابني الثاني فريد من نوعه. لقد ورث ذلك عني". وستبتدع أمي ذكريات حقيقية، تصور قدري مسبقاً: "كان في سن العاشرة يصنع طائرات بالمكعبات، ثم يلقي بها فوق مزرعته المصغّرة". أما شقيقتي، فسوف تروي برفق ذكريات واقعية، لكن أي محاولة لربطها بالقضية ستكون غير مجدية: "كان يطيل تأمله لحبات السكاكر في يده قبل أن يأكلها". وسيقول أخي، هذا إذا سمحت له زوجته بالكلام، إنه كان يتوقع ذلك، نظراً للاسم الذي أحمله. هذا الشطط ليس عارياً تماماً عن الصحة.

حين كنت في بطن أمي، أطلق علي والديَّ اسم Zoé (اسم جميل، ويعني الحياة!)، اعتقاداً منهما بأنني أنثى، وكانا يقولان لـ Chloé المفتونة بأختها الصغيرة التي ستأتي إلى الحياة إن هذا الاسم يتناغم مع اسمها.

كانت سعادتهما بابنهما البكر "إيريك" كبيرة جداً، حيث لم يشعرا بحاجتهما لابنٍ ثانٍ. كان يستحيل أن تكون Zoé مختلفة شكلاً عن Chloé الرائعة.

جئت إلى الحياة ومعي قضيب بين فخذيّ. لم يحزنا لذلك، لكن تمسكهما الشديد باسم Zoé دفعهما إلى التفتيش عن المقابل الذكري لهذا الاسم بأي ثمن كان. في موسوعة أكل عليها الدهر وشرب، عثرا على اسم زوئيل Zoïle فكان من نصيبي، ولم يكترثا للمعنى الذي يحمله هذا الاسم.

حفظت عن ظهر قلب السطور الستة المخصصة لاسم زوئيل Zoïle في معجم روبير المخصص لأسماء الأعلام: "زوئيل (زوالوس باليونانية) عالم سفسطائي يوناني عاش في القرن الرابع قبل الميلاد. اشتهر خصوصاً بانتقاده الشديد السخيف لـ هوميروس. لقب بـ "آفة هوميروس"، ويقال بأن هذا اللقب هو عنوان الكتاب الذي حاول أن يبرهن فيه باسم الحس السليم عن تهافت المدهش في شعر هوميروس.

ويبدو أن هذا الاسم قد شاع في اللغة العامية، فوعي غوته لعبقريته بدرجة لا بأس بها دفعه إلى وصف الانتقادات التي كانت تستهدفه بالانتقادات على طريقة زوالوس.

وفي موسوعة في فقه اللغة علمت أن زوئيل قد لقي حتفه على أيدي جمع من الناس الطيبين الذين سئموا أحاديثه عن "الأوديسة". ففي عصر البطولات لا يتورع محبو عمل أدبي عن قتل الناقد الذي لا يمكن هضم انتقاداته.

باختصار، كان زوئيل أحد المخبولين المثيرين للمقت والسخرية، وهذا ما يفسر بأن أحداً لم يخلع قط هذا الاسم ذا الصائتية الغريبة على أحدٍ من أبنائه، باستثناء أهلي بالتأكيد.

عندما اكتشفت، في سن الثانية عشرة، ما ينطوي عليه اسمي من شؤم، ذهبت إلى أبي أسائله. لم يجد من طريقة يتملص بها سوى القول بأن "لا أحد يعلم ذلك". أما أمي فكان ردها أشد:

- لا تستمع إلى هذه الأقاويل.

- أمي، هذا مذكور في المعجم.

- هل ينبغي أن نصدق كل ما يُذكر في المعجم...

قلت بلهجة حازمة:

- ينبغي أن نصدق ذلك.

وسرعان ما لجأت إلى حججٍ أخرى أشد مراوغة ومأساوية:

- إنه ليس على خطأ. أعترف بأن في "الإلياذة" كثيراً من الحشو.

من المستحيل حملها على الاعتراف بأنها لم تقرأها.

مادمت قد حملت اسم أحد السفسطائيين، فليس عندي ما أقوله في حق جورجياس أو بروتاجوراس[1] أو زينون الذين لا تزال عبقرياتهم تثير الحيرة، ولكن أن أحمل اسم أغبى السفسطائيين وأحقرهم، فليس في هذا ما يعدّني لمستقبلٍ شريف.

١- اشتهر بقوله "إن الإنسان هو مقياس كل شيء" - مترجم.

كنت في الخامسة عشرة من عمري عندما أمسكت بالثور من قرنيه، إذ من المفيد أن أستبق قدري: سوف أضع ترجمة جديدة لمؤلفات هوميروس.

في تشرين الثاني، تغلق المدارس أبوابها لمدة أسبوع. وفي عمق الغابة كان لأبويّ مسكن خرب، كنا نقصده أحياناً للاستجمام.

طلبت مفاتيحه منهما.

سألني أبي:

- ماذا ستفعل هناك بمفردك؟

- أريد أن أترجم الإلياذة والأوديسة.

- هنالك ترجمات ممتازة لهما.

- أعلم ذلك. ولكن حين يترجم المرء نصاً، تنشأ بينه وبين ذاته رابطة أقوى وأمتن من الرابطة التي تولدّها القراءة.

- هل تنوي أن تدحض سميّك الشهير؟

- ليس لدي أدنى فكرة. قبل الحكم بذلك يجب أن يكون لي بهذين العملين معرفة وثيقة.

قطعت المسافة إلى القرية في القطار، ثم تابعت الرحلة إلى المنزل سيراً على الأقدام. سرت ما يقارب عشرة كيلومترات. كنت أحمل حقيبة ظهر، وكنت أشعر بالفرح من ثقل المعجم القديم والكتابين الشهرين.

وصلت في وقتٍ متأخر من مساء الجمعة. كان المنزل بارداً جداً. أشعلت النار في المدفأة، وبالقرب منها تكورت فوق متكأ فرشته بالأغطية. خدّرني البرد فنمت.

في الصباح الباكر استيقظت مذهولاً. كانت الجمرات لا تزال تتوهج في الظلام. وعندما تذكرت سبب مجيئي، شعرت بموجة من الحماس تجرفني: كنت في الخامسة عشرة، وأمامي تسعة أيام من العزلة التامة لأخترق بكل قوة أكبر الأعمال الأدبية إجلالاً في التاريخ. ألقيت قرمة من الحطب في المدفأة، وأعددت لنفسي قهوة. ركزت طاولة صغيرة قرب النار، ووضعت فوقها الكتابين مع المعجم. جلست وفي يدي دفتر جديد، وبدأت بغضب أخيل.

كنت من حينٍ إلى آخر أرفع رأسي عن الكتاب لأتذوق نشوتي اللحظية. كنت أقول لنفسي: "لا تغفل عن أهمية ما يحدث لك". لم أغفل عنها قط، ولم يخب لهيب حماسي مع مرور الأيام: كانت المقاومة التي لقيتها من اللغة اليونانية تجدد بلا حدود إحساسي بنصرٍ عاطفي كبير. غالباً ما كنت ألاحظ بأنني أترجم بشكلٍ دقيق لحظة الكتابة. وبما أن الكتابة تفترض مرور الفكر بجزء من الجسد - يتشكل كما أتصوره من العنق والكتف والذراع الأيمن - قررت أن يكون جسدي كله مداداً لفكري. كنت حين يستعصي علي معنى بيتٍ من أبيات الشعر، أقطّعه

على إيقاع قدميّ وركبتيّ ويدي اليسرى. لم يكن ذلك ليتمخض عن أي نتيجة. كنت عندئذٍ أدندن به رافعاً صوتي. النتيجة سلبية دوماً. وحين كان صبري ينفد، كنت أذهب إلى المرحاض لأقضي حاجة، وعند عودتي أجد أن بيت الشعر قد تُرجم من تلقاء ذاته.

تملكتني الدهشة للوهلة الأولى. هل كان ينبغي أن أبول حتى أفهم؟ كم ليتراً من الماء علي أن أشرب حتى أترجم هذين المجلدين الضخمين؟ ومن ثم أدركت بأن التبول لم يكن له دخل في ذلك. فالفضل كله يعود للخطوات التي خطوتها للذهاب إلى المرحاض. لقد التمست العون من ساقيّ، وكان لا بد من تحريكهما كي أعثر على الحل. من المؤكد بأن عبارة "ماشي الحال" ليس لها تفسير آخر.

اعتدت التنزه في الغابة مع هبوط الظلام. كانت ظلال الأشجار الباسقة والهواء البارد تملؤني فرحاً. كان ينتابني شعور بأنني أواجه بيئة عدائية مترامية الأطراف. كنت مدمناً على الترجمة، وكنت أحس بأن التدريب يمد دماغي بالقوة التي تعوزه. وفي البيت كنت أقوم بتحبير الصفحات البيضاء.

لم تكن الأيام التسعة كافية لترجمة نصف الإلياذة. ورغم هذا عدت إلى المدينة، وأنا أشعر بالنصر. لقد عشت قصة حب سامية ربطتني بهوميروس إلى الأبد.

خمس وعشرون سنة مضت على تلك الحادثة، ولا بد من الإقرار بأنني لا أستطيع الآن استعادة ولو بيتٍ واحد من الشعر. لكن ذاكرتي اختزنت الشيء الجوهري: الطاقة الهائلة لتلك النشوة.

يتميز الذكاء في سن الخامسة عشرة بالحدة، ومن الأهمية بمكان امتلاكها، وهي كبعض المذنبات لا تعود مرةً ثانية.

أثناء عودتي من العطلة، حاولت أن أروي لبعض رفاقي في الثانوية ما حدث لي، فلم أجد آذاناً صاغية. لم أتفاجأ بذلك، فأنا لم أكن أستقطب الاهتمام في الحاضر ولا في الماضي. لم أكن شخصية كارزمية: كنت أكره نفسي لتألمي من هذا الأمر. ماذا كان من شأن ذلك أن يصنع لي؟ ما كان يجب أن أصدق بأن إقامة حميمية مع هوميروس ستحرك مشاعر حفنة من التلاميذ. ثم لماذا كنت أريد إثارة دهشتهم؟

في فترة المراهقة تفرض مسألة الإشراق الأساسية نفسها: هل سنكون في النور أم في الظلام؟ كنت أتمنى لو كان الاختيار في يدي. لم يكن ذلك ممكناً، فشيء لم أفلح في كنهه حكم علي بأن أكون في الظلام. لو كان هذا اختياري لقبلت به.

من جهة أخرى، كنت أحب الشخصيات الكارزمية كالآخرين. عندما كان Fred Warnus أو Steve Caravan يتكلمان، كنت مسحوراً بكلامهما. كنت عاجزاً عن تفسير هذا السحر، لكنني كنت أحتمله بحماس. كنت أعلم بأنني لا أملك مفتاح هذا السر.

لم تشهد أوروبا الغربية حرباً منذ زمنٍ طويل. تعرف أجيال زمن السلام المديد طرقاً أخرى للإشارة إلى آلة حصاد المواسم العملاقة: تضاف كل سنة أسماء عديدة إلى نصب الضحايا الذين نال منهم الخمول. يليق بنا أن ندعهم يستفيدون من قرينة الشك: فهم لم يتخلفوا عن المعارك، ولم يفروا منها، بل كان لبعضهم نجومية حقيقية في سن الخامسة عشرة. ليس صعباً فهم هذا التعبير: حين يلتحق أحد اليافعين بالجبهة، فهو يقدم أروع ما قُدم من مشاهد. كان Caravan و Varnus يتقدان بما يشبه النار المقدسة.

حُصد فارنوس في الثامنة عشرة من عمره: انتسب إلى الجامعة، وبين ليلةٍ وضحاها كان صاحب الذهن المتقد يردد الشعارات المجوجة

لهذا الأستاذ أو ذاك. أما كارافان فقد صمد مدة أطول: سافر إلى ولاية أورليان الجديدة ليتتلمذ على أيدي أفضل أساتذة موسيقا الـ بلوز. كان يبشر بمستقبلٍ مشرق. شاهدته وسمعته يعزف، فانتصب شعر بدني. حين أشرف على سن الثلاثين، التقيته في أحد المتاجر وهو يجر عربة مملوءة بزجاجات البيرة. قال لي، دون خجل، إنه لا يزال يمتلك موهبة عزف موسيقا الـ بلوز، وإنه لم يحزن لكونه "أصيب بمبدأ الواقع". لم أجرؤ أن أسأله إن كانت زجاجات البيرة هي ما عناها بمبدأ الواقع.

ليس بالضرورة أن يسلك الخمول الطريق الاجتماعي المهني لتكون له الغلبة. فانتصاراته تكون في أحايين كثيرة أشد حميمية. إذا كنت قد اخترت التحدث عن شابين كانا في سن الخامسة عشرة صنوين للآلهة، فلأن آلة الحصاد العملاقة لا تقف بالمرصاد إلا للنخبة.

جميعنا مرسلون إلى الجبهة بعلمٍ أو بغير علم، وهناك نندحر بأشكالٍ شتى.

لا تجد في أي مكان قائمة مفصلة بأسماء الضحايا، إذ لا نعرف تمام المعرفة من أدرج اسمه فيها، وحتى الواحد منا لا يعرف إن كان اسمه قد ورد فيها. ورغم هذا لا يعترينا الشك بوجود تلك الجبهة. في سن الأربعين يقل عدد الناجين، لدرجة يصبح معها الشعور المأساوي هاجسنا. في سن الأربعين نكون حتماً في حداد.

لا أظن بأن الخمول قد نال مني. فمن هذه الناحية نجحت دائماً في المحافظة على الحيوية بفضل بعض إشارات الإنذار، وأكثر تلك الإشارات فعالية هي التالية: حين لا نفرح لمدة طويلة بسقوط أحدهم، فهذا يعني أنه لا يزال بالإمكان أن نتمرّى في المرآة. إن التلذذ بخمول الآخرين هو أوج الخمول.

أتألم جداً من انحطاط الأشخاص الذين أعرفهم. التقيت مؤخراً بلورا، وكانت صديقة ممتازة في أثناء دراستي الجامعية. سألتها عن فيوليت التي كانت أجمل فتاة في دفعتنا. أجابتني وهي تطير من الفرح بأن وزنها زاد ثلاثين كيلوغراماً، وبأن وجهها أصبح أكثر تجعيداً من وجه الجنية "كارابوس"[1]. راعني فرحها. أحسست بالأسى حين صدمها حزني على مستقبل ستيف كارافان:

- لماذا تحاكمه؟

- أنا لا أحاكمه. حزنت فقط على تركه للموسيقا. كان جد موهوباً.

- لا يستطيع أن يدفع فواتيره من يظن نفسه موهوباً.

كان هناك ما هو أبشع من هذه العبارة: الامتعاض الذي كان يقطر من حديثها.

- بالنسبة إليك إذاً، كان ستيف مخدوعاً بنفسه؟ ألم تعتقدي يوماً بأنه قد يكون موهوباً؟

- لم يصب من الموهبة أكثر مما أصاب أي واحدٍ منا.

لم يكن يجدي نفعاً الاستمرار في الحديث، فتحمل خطاب الشكليين ليس سهلاً، ويصبح غير محتمل حين نكتشف حجم الكره الذي يتستر خلف تعاليمهم.

١- اسم الجنية الشريرة في حكاية "الحسناء النائمة" - مترجم.

لقد أفلتت الكلمة: إنها الكره. خلال ساعات معدودة ستنفجر طائرة إثر قيامي باختطافها. لن يقل عدد الضحايا عن المئة رغم اتخاذي للحيطة والحذر. أكتب، وهذا ليس تهكماً، بأن جميع الضحايا أبرياء. من أنا لأندد بالكره الذي يحس به الآخرون؟

أحتاج أن أتوجه بكتابة الآتي لنفسي: أنا لست إرهابياً. يفعل الإرهابي ما يفعله متعللاً بمطلب، وأنا لا أطالب بشيء.

لا يضيرني أن أختلف اختلافاً جذرياً عن أولئك السفلة الذين يفتشون عن حجة يبررون بها كرههم.

أبغض الكره، ومع هذا أحس به. اختبرت هذا السم الذي يسري في الدم فيتغلغل حتى العظم. وما الفعل الذي أستعد لارتكابه إلا أصدق تعبير عن ذلك. لو كان ما سأرتكبه عملاً إرهابياً، لابتدعت لكرهي حجة وطنية أو سياسية أو دينية. تحدوني الجرأة لأن أقول بأنني وحش فاضل، فأنا لا أحاول تبرير كرهي بسببٍ أو بهدف أو بألقابٍ نبيلة. مثل هذا التبرير يصيبني بالقرف.

بات معلوماً منذ حرب طروادة بأننا نقتل من أجل القتل، ونضرم النار من أجل النار، ولا يداخلنا الشك في العثور بعد ذلك على تبرير شرعي. لا أحاول هنا أن أقدم تبريراً، بما أن أحداً لن يقرأ ما أكتب، ولكني أشعر برغبة حميمية لاجتلاء الأمور: إن الجريمة التي سأرتكبها هي جريمة غريزية مع أنها عن سابق قصدٍ وتصميم. اكتفيت بالمحافظة على حافز كرهي سليماً، ولم أتركه يضعف ويتباطأ ليتحول إلى نتانة مصطنعة.

بعد موتي الوشيك، سأنعت بما ليس فيّ. لا أبالي إن كان من أحتقره لا يفهمني. لكن للشر نظافته، ونظافتي تدفعني إلى القول بأنني سأكون بعد انفجار الطائرة وغداً وقذراً ومجنوناً وحثالة. سأكون كل شيء ما عدا إرهابي. لكلٍ دلاله.

ولا أقصد أيضاً أن أعطي لحياتي معنى، فهي لا تفتقر إليه. أعترف بدهشتي الشديدة من الناس الذين يعانون على حد زعمهم من تدني معنى حياتهم، وهم كثيرون. يذكرني هؤلاء بالنساء الأنيقات اللاتي يصرخن أمام خزائنهن الممتلئة بالملابس بأن ليس لديهن شيء يلبسنه. إن مجرد كوننا على قيد الحياة يتضمن معنىً، والعيش على سطح هذا الكوكب يتضمن معنىً آخر، والعيش بين الآخرين يتضمن معنىً زائداً، إلى آخره... ليس جاداً من يقول بأن حياته مجردة من المعنى. بالنسبة إلي يمكن القول بأن حياتي لم يكن لها غرض حتى الآن، وأنا راضٍ عنها كل الرضا. كانت حياتي بلا هدف. كنت أعيش بطريقة مطلقة، وكان في مقدوري الاستمرار على هذا المنوال عن رضا واقتناع، لكن القدر كان لي بالمرصاد.

يسكن القدر في شقة في الطابق الأخير. منذ خمسة عشر عاماً، وأنا أعمل على إيجاد حلول لمشكلات الساكنين الجدد المتعلقة بالطاقة. وتبعاً للمساكن - أينبغي أن أقول تبعاً للكوارث؟- أرشدهم إلى مؤسسة كهرباء فرنسا أو إلى مؤسسة غاز فرنسا التي أعمل لديهما من وقتٍ إلى

آخر. وعندما أرى حالات اجتماعية دون عتبة الفقر، أمنح قروضاً وفق تقديراتي.

أعمل في هذه المهنة في باريس، وغالباً ما تسنح لي الفرصة لأتحقق من قدرة تحمل الناس للعيش في المدينة.

يؤكد لي البعض، في حياء، بأن مساكنهم الخربة لن تصمد طويلاً: "لقد وصلنا للتو. أنت تفهم ما نقصد". فأوافقهم الرأي. أعلم بأنه لن يطرأ تحسن أو تغيير على الغالبية العظمى من الحالات: التغيير الوحيد هو تراكم أمتعة فوق الأشياء الأساسية المبعثرة هنا وهناك.

تقول الرواية الرسمية إنني أحب هذه المهنة، لأنها تتيح لي التعرف على أفراد يثيرون الاهتمام. هذا صحيح، ولكن الأصح أن نقول بأن هذه الوظيفة تغذي حشريتي الطبيعية. أحب اكتشاف حقيقة أماكن العيش، أي البيوت القذرة المخيفة التي قبل الناس العيش فيها.

لا يشوب فضولي احتقار على الإطلاق. حين أرى المسكن القذر الذي أعيش فيه لا أشعر بالفخر. أعي فقط بأنني أضع إصبعي على سرٍ هام لا يمكن البوح به، وهو أن سكنى الجنس البشري ليست بأفضل من سكنى الجرذان.

في الإعلانات والأفلام نرى أفراداً يعيشون في شققٍ فخمة أو في صالونات ذي ذوق رفيع. خلال خمسة عشر سنة من عمري المهني، لم أر أحداً قط ينتقل للسكن في هذه البيوت الفخمة من عالمٍ آخر.

في يومٍ من شهر كانون الأول كنت على موعد مع قاطنة جديدة في حي Montorgueil. جاء في السجل بأنها تعمل كاتبة روايات. تنبه ذهني، لا أذكر بأنني استقصيت عن أحدٍ يعمل في هذه المهنة. كانت مفاجأة حين وجدت في استقبالي امرأتين، بدلاً من امرأة واحدة. كانت إحداهما بلهاء بعض الشيء. حيتني بصوتٍ أخن وهي جالسة على الأريكة التي لم تغادرها طوال الوقت. أما الأخرى فقد دعتني إلى الدخول، وكانت ذات جاذبية وحيوية. كان أدبها الناعم يتناقض مع حالة المكان. لم تكن الشقة التي تقع في الطابق الأخير مجهزة بأي نوعٍ من أنواع التدفئة.

قلت لها وقد راعني البرد القارس:

- كيف تحتملان العيش هنا؟

أجابت، مشيرة إلى ملابسها وملابس البلهاء الجالسة فوق الأريكة:

- كما ترى.

كانت المرأتان تلتحفان بعدد كبير من الكنزات الصوفية، وفوقها عدد كبير أيضاً من المعاطف والشالات والقلنسوات. كانت البلهاء تبدو نسخة محسّنة عن إنسان اليتي. وكانت الجميلة تخطر برشاقة بكل هذه الثياب. تساءلت للحظة إن كانتا تعيشان مع بعضهما البعض. راحت البلهاء تصنع فقاعات بلعابها، وكأنها ترد على السؤال الذي طرحته على نفسي. كلا، يستحيل أن يكون الأمر كذلك. أحسست بارتياح.

سألت بغباء:

- وهل تستطيعان الصمود في هذا المكان؟

أجابت:

- لا نملك الخيار.

ليس ممكناً تخمين عمر البلهاء، كما هو الحال مع جميع البلهاء. أما الجميلة فلا بد أن عمرها يتراوح بين الخامسة والعشرين والثلاثين.

كُتب في السجل الذي أحمله اسم "أ. مالاز".

تُرى ما هو الاسم الذي يخفيه حرف الـ "أ"؟ هل هو أغات؟ أم آنا؟ أم أوريليا؟ أم أودريه؟

لم يسمح لي الموقف بالاستفهام عن ذلك. تجولت في الشقة أتفحصها، وأصابتني الدهشة حين وجدت بأن الماء لا يتجمد في المرحاض. كانت تشيع في الشقة حرارة تقارب عشر درجات مئوية. هذا قليل بلا شك، لكن لماذا انتابني شعور بأن الحرارة تبلغ عشر درجات تحت الصفر؟ نظرت إلى السقف الذي كاد يكون مزججاً بأكمله. كان معزولاً بطريقة مفجعة، وكان تيار الهواء الدائم يجمّد العظام. قدّرت

كلفة التصليحات بمئات الآلاف من اليوروات، والأسوأ هو أنه ليس ممكناً البدء بها قبل فصل الصيف، إذ ينبغي نزع السقف الزجاجي. قلت لها ذلك، فشرعت بالضحك.

- لا أملك فلساً واحداً من هذا المبلغ. لقد دفعنا كل ما نملك لشراء هذه الشقة.

لا بد أنهما شقيقتان فقد قالت: "دفعنا".

- لكن يمكنكما الاقتراض والسكن مؤقتاً عند أحدٍ من ذويكما.

- ليس عندنا أحد.

كان الموقف مؤثراً عند هاتين اليتيمتين الجريئتين. كانت إحداهما تصلح لمشفى الأمراض العقلية.

قلت:

- لن تستطيعا قضاء الشتاء بهذا الشكل.

- هذا ما ينبغي لنا، ليس عندنا حل بديل.

- أستطيع أن أتدبر لكما مكاناً في بيوت الخدمة الاجتماعية.

- نرفض هذا تماماً. على كل حال، نحن لا نشتكي من شيء. أنت من بادر بهذه الزيارة التفتيشية.

تشنج قلبي من هذه اللهجة الدفاعية.

- وكيف تستطيعان النوم في الليل؟

- أضع في السرير كيساً مطاطياً مملوءاً بالماء الساخن، وننام ملتصقتين تحت اللحاف.

بدأت أفهم سبب وجود البلهاء: كانت تمنح الدفء للأخرى. وهذه خاصية لا يمكن الاستعاضة عنها، وأعرف، بحكم ممارستي لمهنتي، أهميتها الجوهرية في العلاقات البشرية. أعجبني إباء الفتاة. قلت مجازفاً بالربح أو الخسارة:

- لا يمكن أن أخرج من هنا من دون أن أعرض عليكما المساعدة أو المعونة أو الوساطة.

- ماذا تعرض علينا إذاً؟

- أستطيع أن أقدم لكماً مجاناً أجهزة كهربائية مؤقتة.

- لن نستطيع تسديد قيمة ما نستهلكه من الكهرباء.

- عملت شركة الكهرباء الفرنسية حساباً لمثل هذه المشكلة.

- لسنا محتاجتين.

- جميل موقفك هذا، لكن هناك التهاب القصبات الحاد، وقد يتحول إلى ذات الجنب. وعدد هذه الحالات في ازدياد.

- نتمتع بصحة حديدية.

غدت لهجتها عدائية. فهمت بأنها تريد أن أريها "عرض كتافي". الشيء الوحيد الذي حصلت عليه بفضل إلحاحي، هو موعد آخر كي أغطي السقف بغطاء بلاستيكي.

قالت:

- سيبدو منظره بشعاً.

أجبت بابتسامة مصالحة:

- هذا مؤقت.

ادخرت للقاء المقبل الأسئلة التي كنت أتحرق شوقاً لطرحها عليها .

ذهبت من فوري إلى متجر الـ Fnac في حي الهال، بحثاً عن روايات تحمل اسم "أ. مالاز". وقع نظري على رواية "رصاصات خلّبية" من تأليف "أ. مالاز".

بعد قراءتي لهذه الرواية تساءلت قلقاً: كيف يمكن للرصاصات الخلّبية أن تكون أقل إيذاءً من الرصاصات الحقيقية؟. عجزت عن الإجابة على هذا السؤال، كما عجزت عن القول إن كانت هذه الرواية قد أعجبتني. لا أستطيع التحديد بدقة إن كنت أحب أن يصيبني سهم مسموم بين عينيّ، أو أن أسبح بين أسماك القرش وساقي مجروحة.

ركزّت انتباهي على النقاط الإيجابية. وهكذا شعرت بارتياحٍ عميق عند انتهائي من قراءة هذه الرواية. لا جرم بأنني تألمت وأنا أقرؤها، ولكن ليس لأسبابٍ أدبية. من جهة أخرى، سررت لعدم وجود صورة للكاتبة على غلاف الرواية، إذ قلما يخلو كتاب اليوم من صورة كبيرة لمؤلفه على الغلاف.

سررت كثيراً بهذه الملاحظة وخصوصاً أنني أعرف وجه الآنسة مالاز الجميل الذي كان من الممكن أن يروّج لعملية البيع. لم يذكر الناشر في تعليقه على ظهر الكتاب عمر الكاتبة، كما لم يذكر بأن موهبتها واعدة أكثر من جميع مواهب جيلها. ولهذا كله استنتجت بأن لهذه الرواية مزايا كثيرة.

وتحت عنوان "صدر للكاتب نفسه"، علمت أن هذه الرواية ليست روايتها الأولى، فقد سبق لها أن نشرت أربع روايات أخرى، وهي: "بلا تخدير"، "في الجسم الحي"، "كسر وخلع"، "المرحلة النهائية". أحسست بقنوط الفارس الذي يظن نفسه منتصراً في المنافسة، وإذا بحبيبته تزج به في أربع منافساتٍ جديدة من العيار نفسه.

طلبتها من مكتبة الحي الذي أسكن فيه، وانتظرت محموماً موعدنا المقبل. قلت لنفسي: هل أحضر معي الرواية كي تكتب لي الإهداء؟ هل هذه فكرة سديدة؟ لو أنني كاتب، فهل أحب أن يتصرف البعض معي على هذا النحو؟ هل ستجد تصرفي هذا تصرفاً فظاً، شكلاً من أشكال رفع الكلفة، أم تعدياً على حياتها الشخصية؟ شعرت بتوتر شديد من هذه الأسئلة المتعلقة بآداب السلوك التي شغلت من الآن فصاعداً الحيز الاجتماعي الضيق الذي أعيش فيه.

في اليوم الموعود، دسست رواية "رصاصات خلّبية" في حقيبة الظهر من دون أن أقرر خطة ما. أليونور: لقد صببت جلّ اهتمامي في هذا الاسم فكان يرن في أذني كالماسة. لكن ينبغي ألا أدعوها هكذا، إذ تبدو لي هذه الفكرة في صعوبتها كصعوبة عدم شكر عازفة قيثارة تعزف لدوبوسي لحظة شعورنا بحاجة ماسة لسماع هذا النوع من الجمال.

استقبلتني أليونور بأدب آلمني. كانت صديقتها المعتوهة تتناول طبقاً من البطاطا المهروسة الساخنة في مكانها المعتاد. قالت لي بصوتٍ أخن: "الطعام يدفئ معدتي". وافقتها الرأي، وبدأت بالعمل. وجدت أن تغطية السقف بغطاء من البلاستيك أصعب مما توقعت. مدت لي الروائية يد العون، فاعترفت لها خجلاً أنه لولا مساعدتها لكنت عدلت وتركتها في مهب تيارات الهواء حتى أعود بفريق عمل.

قلت بعد الانتهاء من العمل:

- كما ترين، إنه ليس بشعاً جداً.

أجابت:

- تستحق السماء ما هو أفضل من غطاء بلاستيكي شفاف. متى سترفعه؟

- على رسلك! بالكاد انتهينا من تركيبه. أنصحك بعدم رفعه قبل نهاية نيسان.

أخرجت من الكيس الكبير الذي كان يحوي الغطاء البلاستيكي أصغر جهاز تدفئة كهربائي مزود بلوحٍ مشع.

قلت معلقاً:

- الآن وقد تم عزل الداخل عن الخارج، صارت التدفئة مجدية. هذا الجهاز أقل استهلاكاً من الجهاز الذي يسخن بالحمل الحراري.

- لم أطلب منك شيئاً.

- لست مجبرة على استخدامه، ولكن لا ترغميني على حمله طوال النهار. سأتركه هنا، وسوف أسترده في نهاية نيسان مع الغطاء.

سحبت قفازيها من يديها لتداعب سطحه بأصابعها كأنها تداعب حيواناً أليفاً أهديته لها. لاحظت على إحدى يديها جرحاً عفناً، فأطلقت صيحة رغم عني.

قالت:

- لا شيء يدعو للقلق. لقد انفجر كيس التسخين وأنا نائمة. أعتبر نفسي سعيدة لنجاتي مما حدث بحرق في يدي.

- هل ذهبت إلى الطبيب ليداوي لك الجرح؟

- لا داعي لذلك. كل ما في الأمر هو أن منظره مخيف بسبب انتفاخه.

أعادت لبس قفازيها. داهمني انطباع بأنه بالإمكان تقطيع الهواء إلى مكعبات من شدة برودة الشقة. أحسست بانقباض صدري عندما فكرت بأنني سأترك هذه الفتاة في هذا السجن القطبي.

قلت متلعثماً:

- هل تستطيعين الكتابة هنا؟

- أليونور! هذا سؤال موجه إليكِ!

نظرت إلي البلهاء مندهشة، لكنها كانت أقل اندهاشاً مني. ماذا! هي الكاتبة إذاً؟

كررت سؤالي بخوف شديد، محملقاً ببقايا البطاطا المهروسة حول فمها:

- هل تستطيعين الكتابة هنا؟

أجابت بصوتها الأخن:

- أحب هذا المكان كثيراً.

ولكي أخفي خوفي، ذهبت إلى الحقيبة وأخرجت منها الرواية.

قالت الجميلة:

- انظري! لقد أحضر السيد معه روايتك. هل تريدين أن تصدّريها بإهداء؟

أطلقت المخلوقة قرقرة سعيدة، فهمت منها أنها موافقة. كنت أؤثر إعطاء الرواية للجميلة لكي تناولها لها، لكنني تشجعت وأعطيتها مع قلمي للبشعة. تأملت القلم لبرهة من الزمن. قالت الفتاة التي كنت أجهل اسمها:

- إنه قلم السيد، وينبغي أن تعيديه إليه.

لقد تغير الاسم منذ أن عرفت صاحبته. أصبح يعني "Alien"[1]. أجل لقد كانت تشبه ذاك الشيء في الفيلم. ولا شك أن هذا ما جعلني أرتعب منها.

قلت للفتاة الجميلة:

- يوجد مقهى قريب من هنا. فهل ترغبين في تناول كأس؟

أوضحتْ للمعتوهة بأنها ستذهب برفقة السيد إلى المقهى، وقالت لها أن تنتهز الفرصة لتكتب إهداءً يدل على وقارها. تساءلت: تُرى ماذا يعني هذا؟ وما دخل الوقار أو عدم الوقار في حالتها الشبيهة بالأشباح.

في المقهى، قرأتْ في عيني علامات استفهام، فسألتني في الحال:

- في الحقيقة، لا يُصدّق أن تكون مثل هذه الكاتبة متخلفة عقلياً. لا تحتجّ، أعرف أن هذه الكلمة ليست مقبولة، لكنها في محلها وليس فيها احتقار. أليونور بطيئة في الفهم، فهي تحتاج إلى نوع من الموهبة للقيام بأبسط الأشياء. لغتها مجردة من العبارات الآلية التي تزخر بها لغتنا.

- ليس هذا أشد ما يدهشني. روايتها عنيفة جداً وأليونور في غاية النعومة واللطافة.

١- من أفلام الخيال العلمي ويعني الغريب القادم من الفضاء الخارجي. - مترجم.

سألت:

- هل تعتقد بأن الكاتب اللطيف يكتب كتباً لطيفة؟

شعرت بأنني ملك الأغبياء، فتركت لها الحديث. تابعت قائلة:

- معك حق في نقطة واحدة: أليونور ناعمة ولطيفة. إنها حقاً كذلك من دون غاية تبغيها. إذا لم أتولَّ أمرها، فسوف يسعى الناشرون في إفلاسها.

- هل أنت وكيلة أعمالها؟

- إلى حدٍ ما، ولو أنه لا يوجد عقد صريح بيننا. تعرفت على أليونور أثناء نشرها لروايتها الأولى منذ خمس سنوات. أعجبت كثيراً بأسلوبها في الكتابة، فذهبت إلى معرض الكتاب لأحصل منها على إهداء. نوّهت دار النشر على الغلاف بأن أليونور مالاز كاتبة حقيقية فريدة من نوعها، وبأن "اختلافها عن الآخرين يعتبر إثراءً لمجتمعنا". أصبت بصدمة عندما رأيتها. كانت براءتها واضحة وضوح الشمس. فبدلاً من أن تكتب إهداءً على الكتاب الممدود إليها، أو أن تبتسم ابتسامة التاجر الذي يروج لبضاعة يبيعها، راحت تنظف أنفها من الأوساخ غير مكترثة لاستهجان زوّار المعرض لها. في تلك اللحظة اقتربت منها سيدة، وسددت إليها لكمة في أسفل ظهرها، وأجبرتها بيدها الأخرى على التقاط القلم. أدركت في الحال أنها بحاجة إلى الحماية.

- على غلاف روايتها "رصاصات خلبية" لم يُذكر بأنها... مختلفة.

- حرصتُ على عدم ذكر ذلك بعد روايتها الأولى. صدمني استغلال إعاقتها كوسيلة للبيع، وخصوصاً أنه بالإمكان قراءة رواياتها

دون معرفة هذه النقطة. ولما أقنعت الناشر بالكف عن ذكر مشكلتها، حاول أن يضع صورتها على الغلاف. الأمران سيان لأن وجه أليونور يفصح عن كل شيء. وقفت في وجه هذا المشروع.

- وهل نجحت؟

- أجل. كان أصعب ما في الأمر هو الاتصال بها، ليس لأنها كانت تخفي عنوانها، فهي لا تعرفه. كنت مجبرة على اقتفاء أثرها. في النهاية اكتشفت الحقيقة: كان ناشرها يحبسها وحيدة في غرفة ضيقة مع آلة تسجيل. وفي المساء كانت تأتي إليها امرأة مسنة وتستمع إلى الشريط الذي يفترض أن تكون أليونور قد سجلت عليه روايتها المقبلة. فإذا ارتأت بأن السجينة قد اجتهدت في عملها تركت عندها طعاماً وفيراً، وإلا فلا شيء. تعشق أليونور الأكل، بيد أنها لم تكن تفهم شيئاً من هذا الابتزاز.

- هذا شيء يثير القرف.

- والأسوأ هو أنني لم أكن أستطع الحيلولة دون ذلك. بعد بحث دؤوب عثرت على أبويها، وعرفت منهما بأن هؤلاء الناشرين اللصوص كانوا أكدوا لهما بأن ابنتهما تعيش عيشة باذخة في باريس. أطلعتهما على الحقيقة، فأصيبا بصدمة، ولكنهما اعترفا لي بعدم مقدرتهما على الاهتمام بها. أبديت لهما استعدادي على إيواء أليونور في بيتي والاهتمام بها، فلم يعترضا لحسن الحظ، إذ أنني كنت أقطن حينذاك في بيت قذر جداً في حي الـ Goutte d'Or، وتعتبر شقتنا الحالية التي اشتريناها بفضل حقوق التأليف العائدة لأليونور بيتاً فخماً مقارنةً به. صعُبَ عليك عدم وجود تدفئة هنا. في الـ Goutte d'Or لم يكن لدينا تدفئة وحسب، وإنما أيضاً افتقدنا المياه الجارية في الأنابيب.

- ألم يحاول الناشر الاعتراض؟

- بلى، بكل تأكيد، ولكن أهلها وضعا ابنتهما تحت وصايتي، وهذا ضمان لنا نحن الاثنتين. ورغم هذا لا أعتبرها ربيبتي، وخصوصاً أنها تكبرني بثلاث سنوات. إنني في الحقيقة أحبها كحب الأخت لأختها رغم أن العيش معها ليس سهلاً دوماً.

- للوهلة الأولى ظننت أنك الكاتبة.

- شيء مضحك. قبل معرفتي بها اعتقدت مثل الجميع بأنني قادرة على الكتابة. ولما بدأت تملي علي نصوصها، عرفت مقدار ما يفصلني عن الكاتبة.

- إنها تمليها عليك؟

- نعم. فهي تكاد لا تستطيع الكتابة بيدها. كما أنها لا تحسن استخدام الحاسوب.

- أليس هذا أمراً شاقاً عليك؟

- هذا هو أفضل شيء أقوم به في مهمتي. حين كنت قارئة عادية لأليونور لم أنتبه لفنها. إن نثرها الرقراق يغريك بالكتابة. تقول إن ذلك سهل. على كل قارئ أن ينسخ المقاطع التي يحبها: بهذا الشكل وحده يفهم سبب روعتها. لا تتيح لك القراءة السريعة جداً اكتشاف ما تخفيه هذه البساطة.

- لديها صوت غريب، أجد صعوبة في فهم ما تقول.

- هذا من صلب إعاقتها. يعتاد المرء على إملائها.

- مما تعاني في الواقع؟

- من نوع نادر جداً من التوحد يدعى مرض Pneux. اكتشف الطبيب Pneux هذا العته الذي يعرف عند عامة الناس "بالتوحد اللطيف". ومن المشكلات التي يعانيها المصابون بهذا المرض، هي أنهم لا يدافعون مطلقاً عن أنفسهم ضد الاعتداءات عليهم، إذ أنهم لا يرونها على أنها كذلك.

فكرت، ثم قلت:

- مع ذلك، في كتابها ...

- أجل، ولكن هذا عائد إلى أن أليونور كاتبة، فعندما تكتب تفلح في التعبير عما لا تراه في الحياة اليومية. للأسف بقية المصابين بهذا المرض لا يتمتعون بهذه الموهبة.

- موهبتها لا تدين إذاً بشيء لمشكلتها.

- بلى. فموهبتها دفاع مناعي، ولولا مرضها لما ظهر هذا الدفاع المناعي. أكره نظرية الشر الضروري، ولكن ينبغي أن نقر بأنه لولا إعاقتها ما كانت لتبتدع تلك الكتابة.

- ما هو دورك إلى جانب كتابة نصوصها؟

- أنا صلة الوصل بين أليونور والعالم الخارجي. وظيفتي مهمة جداً، فأنا أفاوض الناشرين، وأسهر على صحتها النفسية والجسدية، وأشتري لها الطعام والثياب وابتاع لها الكتب وأختار لها الموسيقا وأصطحبها إلى دور السينما وأعدُ لها طعامها وأساعدها في تنظيف نفسها..

- هل هي عاجزة عن ذلك؟

- ترى في الوساخة ظاهرة مسلية. لا ترى ما يدفعها إلى تنظيف نفسها.

قلت محاولاً تصور التنظيف المقصود :

- أجدك امرأة شجاعة.

- أنا مدينة لأليونور بالكثير. إنني أعيش على حسابها .

- هذا إنصاف نظراً لما تفعلينه من أجلها .

- لولاها لمارست مهنة عادية مملة. بفضلها أعيش حياة تستحق هذا الاسم، أنا مدينة لها بكل شيء.

ذُهلت مما كانت ترويه على مسامعي. لو كنت مكانها لما احتملت قدرها، أما هي فقد كانت مبتهجة بذلك. خشيت أن تكون قدّيسة، فالقديسات يمارسن عليَّ نوعاً من الصدمة الإيروسية التي تعزا إلى السخط الذي أستمده منهن. ما كنت أريد أن أحس بهذا الشيء تجاه هذه المرأة الشابة.

سألتها لأضع حداً لهذا القدر الكبير من النبل:

- ما هو اسمك؟

ابتسمت كمن لديه ورقة رابحة يلعب بها :

- Astrolabe[1]

لو كنت أتناول الطعام وقتها لغصيّت به.

قلت متعجباً :

- ولكن هذا اسم ذكر!

- أه... أخيراً جاء من يعرف ذلك!

- كان لـ إلوييز وأبيلار[1] ابناً بهذا الاسم!

١- يعني الاسم "اسطرلاب"، وهو آلة قديمة لقياس ارتفاع النجوم. - مترجم.

- هل تعين مؤسسة الكهرباء الفرنسية لديها فلاسفة؟

- كيف خطر على بال والديكِ أن يطلقا عليك اسم أسترولاب؟

- على الأقل، أنت لا تعتقد بأنني اخترت هذا الاسم لاجتذاب اهتمام الآخرين.

في الواقع، كنت أعرف بحكم وضعي بأن الوالدين قد يسميان ابنهما بطريقة شاذة.

تابعت تقول:

- كانت أمي تدعى إلويز، وكان أبي يدعى بيير، وهو الاسم الصغير لأبيلار. لا شيء يستحق الملامة حتى الآن. بعد أن حملت بي أمي بوقتٍ قصير، غدا أبي متعصباً لـ فيدل كاسترو، فهجر أمي ورحل إلى كوبا ليعيش هناك. حاولت أمي أن تقنع نفسها بأن كلمة "نصير كاسترو" وكلمة "مخصي" لهما جذر واحد[٢]. وانتقاماً منه أسمتني أسترولاب ليفهم موقفها إذا ما قدر له أن يعود، لكنه لم يعد قط.

- لا يقدم هدية لابنه من يطلق عليه اسماً بدافع الانتقام.

- أوافقك هذا الرأي، لكنني أحب اسمي.

- معك حق فهو اسم رائع.

كنت أتمنى لو أنها شاطرتني فضولي. للأسف فهي لم تستجوبني عن هويتي، فبادرت بذلك من تلقاء نفسي. شرحت لها من يكون زوئيل، ثم ختمت قائلاً:

١- شخصيتان تاريخيتان اشتهرتا بعلاقتهما المأساوية. - مترجم.

٢- الكلمتان في اللغة الفرنسية قريبتان من بعضهما من حيث اللفظ: castriste et caster.

- بيننا نقطة مشتركة: اسم معقد أطلقه علينا أهلنا بوقاحة تستوجب العقوبة.

قالت كأنها تريد أن تنهي حديثاً:

- ينبغي ألا نعوّل كثيراً على المعنى الحرفي للاسم. لا شك أن أليونور قد فرغت الآن من كتابة الإهداء على الكتاب. تعال وخذه. لقد ضيعت عليك ما يكفي من وقتك الثمين.

رجعت معها مكسور الخاطر. تُرى أي غلطة قد ارتكبتها؟ أنقذتني أليونور من المأزق، فقد سلمتني الكتاب بسرورٍ واعتزاز. قرأت في الكتاب الإهداء التالي: "إلى السيد، قبلاتي، أليونور".

علّقت أسترولاب بلهجة أكثر عذوبة:

- إنها تحبك.

لم أشأ تشويه صورتي فرحلت على الفور. وعرفاناً مني بالجميل، قررت أن أقرأ مؤلفات هذه الكاتبة بعناية فائقة.

استرولاب: بالطبع من أجلها أستعد لاختطاف تلك الطائرة. قد تلقي هذه الفكرة الرعب في قلبها. ما الضير في ذلك، فهناك نساء ينبغي أن نحبهن رغم أنوفهن، وهناك أفعال ينبغي أن نقوم بها رغم أنوفنا.

لكن من الشطط التأكيد بأنه لو نجحت قصة حبي لما تحولت إلى هذا القرصان الجوي في يوم الأحد. أولاً، لأنني لا أعرف ما يعنيه نجاح قصة حب. متى يمكن اعتبار الحب ناجحاً؟ ثانياً، لأنه لو نجح هذا الحب نجاحاً أكيداً، فلست أضمن بأنني لن أكرّس يوم الأحد هذا لتنفيذ عملية الخطف.

حين ستعلم أسترولاب ماذا فعلت، ستحتقرني، وستكرهني، وستلعن اليوم الذي عرفتني فيه، وستتلف رسائلي، أو في أسوأ الحالات ستسلمها للشرطة. يقيني بأنني سوف أشغل تفكيرها كما لم يشغله أحد قط. ليس في هذا ما يسوء.

أجهل معنى نجاح قصة حب، بيد أنني أعرف أنه لا يوجد فشل في الحب. هذا تناقض في العبارات. الشعور بالحب هو انتصار في حد

ذاته، بحيث نتساءل لماذا نريد المزيد. في سن السادسة عشرة اختفت شهيتي للطعام من دون أن تُشخّص على أنها حالة مرضية. خسرت من وزني عشرين كيلوغراماً في شهرين. منظر شاب طوله ١,٧٥سم ووزنه ٤٠ كيلوغراماً يولّد النفور في النفس. دامت هذه الحال نصف سنة قبل أن تعود شهيتي إلى الطعام. الشيء الغريب لهذه الظاهرة هو أنها كشفت لي معجزة الملكات التي حُرمت منها، ومن بينها تلك القدرة المدهشة للتركيز على شخصٍ ما. علمتني هذه الشهور الستة من فقدان الشهية للطعام فقداناً مطلقاً، بأن حقيقة الإحساس بالحب نعمة، حالة يقظة مطلقة لا وجود معها لأي حقيقة أخرى.

وصلتني الكتب التي طلبتها من صاحب المكتبة: حملت مؤلفات أليونور إلى البيت. قرأتها حتى خرجت جوارح القراءة من جسدي، ومن العسير تحديدها في حال هذه الراويات. إن التهام مؤلفات كاتبة للفوز بقلب الفتاة التي ترافقها ليس أمراً عادياً. بعد ذلك كتبت للآنسة مالاز رسالة لا مندوحة لها من أن تتقاسمها مع من تتولى حمايتها. سجلت رقم هاتفي في أسفل الرسالة، وحدثت المعجزة: طلبتني أسترولاب في الهاتف.

قالت بإعجاب:

- يا لها من رسالة!

- إنها تعبر عن دهشتي ليس إلا.

- طلبت مني أليونور أن أقرأها لها بصوتٍ مرتفع: كانت تريد أن تتأكد من أن عينيها لم تخدعاها.

- أود أن تقرئي لي رواياتها بصوت مرتفع للسبب نفسه.

سمعتها تضحك في الهاتف.

- هل تسمح لنا مؤسسة كهرباء فرنسا بدعوتك إلى الشاي في بيتنا من دون أن يكون للتدفئة دخل في ذلك؟

حللت عليهما يوم السبت المقبل، في الساعة الخامسة مساءً. ثبت لي أن شرب الشاي بصحبة محبوبتي وروائية معتوهة تجربة معقدة. كانت تشيع في الشقة برودة تكاد تكون أقل قسوة من ذي قيل.

قلت بعد التثبت:

- ألا تستخدمان جهاز التدفئة الذي قدمته لكما؟

- بلغّ عنا مؤسسة كهرباء فرنسا. لا تنزع معطفك. ضع ثقتك في خبرتنا: من الأفضل أن تحتفظ بالحرارة التي خزنتها.

قدمت لهما علبة من الحلوى من ماركة Ladurée. صبّت أسترولاب لي الشاي، وقدمت لي قطعة من الحلوى. أحسست أنها تصدر إلي أمراً.

أوضحت قائلة:

- الآن وليس بعد.

لم أفهم قصدها إلا حين صارت علبة الحلوى بين يدي أليونور: فبعد أن علا صوتها من الفرح غير مرة، أخذت تبتلع قطع الحلوى الواحدة تلو الأخرى. كنت قد ابتعت تشكيلة من حوالي عشرين قطعة بنكهات مختلفة: كانت أليونور كلما تذوقت نكهة جديدة تصدر صوتاً قوياً، وتمسك أسترولاب من ذراعها لتجتذب انتباهها، وتفتح فمها كي تريها لون قطعة الحلوى التي تسبب لها مثل هذا الارتعاش.

- كان يجب أن أحضر علبة من ثلاثين قطعة.

- ثلاثون أو أربعون، كانت ستلتهم كل شيء على كل حال. أليس كذلك، يا أليونور؟

وافقت الكاتبة بحماس. وعندما انتهت من الأكل، راحت تتأمل بإعجاب العلبة الخضراء الفارغة. كان يبدو أن أسئلتي حول رواياتها لم تكن تصل إلى مسامعها.

قالت أسترولاب:

- لا تجيب أليونور عندما تُسأل عن مؤلفاتها. إنها لا تفهم مبدأ شرح النصوص.

- معها حق.

تضايقت قليلاً من التحدث عنها بضمير الغائب في حضرتها. على كل حال كان حضورها نسبياً. لم تكن تصغي إلينا.

سألت:

- هل قرأت رسالتي فعلاً؟

- بالتأكيد. لا تيأس فأليونور تستمع للمديح. عندما أسهبت ذات يوم في مدح نص من نصوصها، أطبقت عينيها. قلت لها: "ما ردة الفعل هذه؟". أجابت: "أنا أتكور في كلماتك".

- جميل هذا القول.

- ثم أن المديح الذي يكال لـ أليونور يملؤني أنا أيضاً بالفرح.

رنّت هذه الجملة في أذني. كلت مديحاً أخيراً حول أسلوب الروائية. وبالغت فيه قليلاً، ولكن قصدي كان شريفاً.

لم تُخف أسترولاب السرور الذي أدخلته في قلبها: بدت رائعة. ولما انتهيت من المديح، صفقت محبوبتي بيديها:

- أنت أفضل مدّاح عرفته. لقد فتنت أليونور.

كنت في شك من ذلك، فالروائية كانت تضع أنفها فوق ماركة "لادوريه"، وتصب طاقتها في اشتهائها.

قلت:

- لأن هذا نابع من صميم القلب.

- موهبتك في النقد الأدبي تفوق كثيراً موهبة الرجل الذي تحمل اسمه.

قلت مندهشاً لكونها قد حفظت حديثي:

- ها أنا مطمئن كما ترين.

- ما الذي أتى بك إلى مؤسسة كهرباء فرنسا؟

سررت لهذا الفضول الذي خصتني به، وانطلقت في سيرة حياتية قصيرة لشخصٍ مثلي شغف حباً بفقه اللغة، ومع هذا لم يرغب في أن يصبح أستاذاً. في عام ١٩٩٦ بلغت مؤسسة كهرباء فرنسا قمة مجدها، فخصصت ميزانية لنشر ديوان من القصص الأدبية القصيرة يبرز عدة استخدامات جديدة للكهرباء. وقد عينوني في سن التاسعة والعشرين بصفة مدير نشر. إن وظيفة كهذه في دار للنشر كانت ستجعل مني شخصاً مرموقاً، أما في مؤسسة كهرباء فرنسا، فكنت أبدو على الخصوص كشخصٍ يشغل منصباً لا يناسبه. وعندما لم يتم تمديد الموازنة طلبت عدم إقالتي، فوجدوا لي هذه الوظيفة المتواضعة التي لا أزال فيها إلى اليوم.

قالت أستيرولاب:

- هذه مهنة جميلة تجعلك تتعرف على أناس من مختلف الأصناف والأجناس.

- أتعرفُ بالأحرى على أصنافٍ من البؤس لا اسم لها، وعلى غرباء يعتقدون أنني سأقوم بطردهم، وعلى حالات اجتماعية تعرّي فقرها أمامي وكأنها تحمّلني وزرها، وعلى مساعدات كاتبات مغتاظات من توسلاتي.

افتر ثغرها عن ابتسامة. طلبت أليونور شاياً، وأخذت تتجرع فنجاناً تلو الآخر، ففهمت لماذا أحضرت أسترولاب إبريقاً ضخماً من الشاي.

علّقت:

- لا تفعل أليونور من الأشياء نصفها وتترك النصف الآخر. عندما تشرب الشاي فهي لا تبقي منه نقطة واحدة.

وسرعان ما ظهرت النتيجة. ذهبت الكاتبة إلى التواليت وعادت، ثم ذهبت ثانية إلى هناك وعادت ثانية من هناك، إلى آخره...

كانت تلك الحالة من الحركة الدائمة مثيرة للاهتمام. كنت كلما اختفت عن العيون أنتهز الفرصة لأبوح لها ببعض ما أحس به:

- بي رغبة شديدة لرؤيتك ثانية.

أو:

- أفكر بك دائماً.

أو:

- أنت بديعة وممشوقة حتى في ستراتك الثلاث التي تلبسينها فوق بعضها البعض.

أو آخذ يدها بكل صراحة.

ولكن رجوع أليونور على جناح السرعة، لم يكن ليتيح مطلقاً للفتاة الشابة الوقت لتتغلب على حرجها وترد.

تمنيت لو اقترحت على الكاتبة، التي يستحيل التملص منها، البقاء في المرحاض لمدة ساعة: ما فائدة رجوعها مادامت تعود إلى المرحاض على الفور؟ اشتبهت مسحة من الأذية الطفلية لدى هذه الشخصية.

قلت في النهاية لأسترولاب:

- إنك مقلّة في الكلام.

- لا أدري ماذا أقول لك.

- حسناً، لقد فهمت.

- كلا، لم تفهم.

دونت عنواني على ورقة صغيرة. كنت أعلم أنها تعرفه، ولكن الاحتياط واجب.

قلت قبل أن أهمّ بالرحيل:

- ربما ستعثرين على الجواب كتابةً.

ليس الوقوع في الحب في فصل الشتاء فكرةً سديدةً. أعراض الحب في هذا الفصل أكثر جمالاً، لكنها أشد إيلاماً. يشجّع ضوء البرد المطلق على التلذذ بالانتظار حتى درجة الإثم. تهيّج القشعريرة الأعصاب. من يحب في عيد القديسة "سانت لوسي" يُعاقب بثلاثة أشهر من الاضطرابات المرضية.

وللفصول الأخرى زينتها من البراعم والعناقيد وأوراق الأشجار التي يدفن فيها المرء حالاته النفسية. لا يترك لك عُري الشتاء ملاذاً تلتجئ إليه. هناك ما هو أكثر خيانة من سراب الصحراء، إنه سراب البرد الشهير، واحة الدائرة القطبية، فضيحة الجمال الممكنة بفضل درجة الحرارة التي تهبط إلى ما دون الصفر.

يشترك الشتاء والحب في أن كلاً منهما يوحي بالرغبة في التماس العون في مواجهة محنةٍ كهذه، ويُقصي تزامن هذين الفصلين العون. التخفيف من نفح البرد بلفح الحر يملأ الحب بشعورٍ فحشي، والتخفيف من وطأة الحب بفتح النافذة على الهواء المنعش يرسلك إلى حتفك في زمنٍ قياسي.

كان سرابي البارد يدعى أسترولاب. كانت صورتها تطاردني في كل مكان. كنت أقاسمها في ذهني ليالي الشتاء الطويلة التي كانت ترتجف فيها من البرد في مسكنها الذي تجمد. يمنع الحب الاغترار بالنفس: كنت أنحدر مع محبوبتي عوضاً عن تخيل ما يمكن أن يمنحه جسدي لجسدها من دفء. لم يكن هناك حدود للحرق المتجمد الذي كان باستطاعتنا بلوغه معاً.

كفّ البرد عن تهديده. أصبح طاقة جبارة تمدنا بالحياة، وتنطق باسمها: "أنا البرد، أسود الكون لسبب بسيط لا يخطر في بال أحد: أحتاج أن يحس الآخرون بي. يحتاج كل فنان إلى ذلك. لم يحقق فنان قط النجاح الذي حققته، فجميع الناس وجميع العوالم تحس بي. حين ستنطفئ الشمس والنجوم الأخرى، سأظل أحرق، وسيحس جميع الأموات وجميع الأحياء بوجودي. وأياً كانت مقاصد السماء فالكلمة الفصل ستكون لي في النهاية بالتأكيد. الكبرياء لا يمنع التواضع: "أنا لا شيء إذا لم يحس بي أحد، ولا وجود لي من دون قشعريرة الآخرين. يحتاج البرد أيضاً إلى وقود، ووقودي هو عذابكم جميعاً إلى أبد الآبدين". لم أحتمل البرد بشجاعة كي أتقاسم مع محبوبتي مصيرها وحسب، وإنما لأقدم تحياتي للفنان الكوني.

قرأت مذهولاً ما كتبت: إذاً، الذي سيفجّر في غضون ساعات طائرة بركابها المائة تقريباً، حين يجد الفرصة لتدوين آخر نتاجه الفكري، يسقط في الفنائية الأشد جموحاً.

ما جدوى ارتكاب عملية تخريبية إذا كان القصد هو التغني بها كما يفعل أي عابر سبيل؟ عندما أفكر في الأمر، أتساءل إن كنت أملك هنا مفتاحاً للغزٍ ما: الذين ينطلقون في العمل المباشر يأملون أن يجدوا

فيه فحولة تنقصهم. سوف يُديم مصير الانتحاري سوء الفهم. أمهات شبه أميات سيتباهين قائلات: "لم يكن ابني بنتاً صغيرة، هو الذي اختطف طائرة البوينغ التابعة لشركة الطيران الأمريكية..." . يسعدني أن ما أكتبه مندثر معي، وهذا هو جنس من الأسرار ينبغي عدم التباهي به. لا ريب أن من أسعى إلى إدهاشه هو أسترولاب. أعلم الآن أن الحال لن تكون كما أشتهي، وأنني أستبق فشلي بشجاعة غبية. ينبغي أحياناً العمل ولو كنت متيقناً بأن أحداً لن يفهمك.

تشير الساعة إلى العاشرة وخمسٍ وأربعين دقيقة. أحس بالفرح لأنه لا يزال أمامي وقت لأتابع حكايتي التي أحس فيها بكياني.

إذا كان إحساس المرء بكيانه شيء نادر اليوم، فإن إحساس المرء بكيانه على نحوٍ جميل، طموح مبالغ فيه بشكلٍ لامعقول. تستفز الكتابة قطعة هامة من الجسد: هذه هي مثابرة الفكر الجسدية. أعلم منذ أسابيع بأنني سأتسبب في تفجير طائرة في الجو، وأنا من ينظم العملية. الجديد في الأمر هو أنني أكتب عنها، والكتابة عنها أقوى بكثير من تصورها في العقل فقط. يُفضل الكتابة عنها بعد التنفيذ، ولكن للأسف لا يكتب المرء بعد نزوله إلى القبر. يحس الجميع بالأسف من هذا الأمر. لن يكون هناك من ناجين بالتأكيد، لذلك لن يقدر أحد أن يروي كيف نفذتُ العملية. وعلى كل حال ليس هذا ذا أهمية.

إنهم يثيرون الأعصاب بتعليماتهم الأمنية الغبية. في الواقع، من السهل دائماً العثور على وسيلة لاختطاف طائرة أياً كانت التعليمات. مبدأ الحيطة الذي له فعالية دون غيره هو إلغاء الطيران. كيف يمكن للإرهابي الحقيقي ألا يحلم في الوصول بطريقة من الطرق إلى هذه الآلات الخرافية المجنحة؟ يستحق إرهابي القطار أو الحافلة أو المرقص

الرثاء. يتطلع الإرهابي حتماً إلى السماء - معظم الانتحاريين يصبون إليها بصورة مضاعفة، مستبقين إقامتهم في العالم الآخر. إن الإرهابي على الأرض أشبه ببحّار في مياهٍ عذبة.

لم يسبق لإرهابي أن نفذ عملية من دون هدف على الإطلاق - وحتى لو كان الهدف شنيعاً، فهو هدف على كل حال. لن يتبدل شيء حتى لو كانت هناك أسراب من الذرائع: الانتقال إلى الفعل لا يكون من دون ذريعة. يحتاج الإرهابي إلى هذا التبرير الخادع، وبالأخص إذا كان انتحارياً.

وسواء كان الهدف دينياً أو وطنياً أو خلافه، فإنه يأخذ دائماً شكل كلمة. وقد صدق كوستلر عندما قال: إن اللغة هي أكثر ما قتلت على وجه الأرض.

من ينتظر رسالة من حبيبته، يعرف أن للكلمات سلطة الحياة والموت. تفاقمت حالتي لأن أستارولاب تأخرت في مراسلتي، فحياتي كانت معلقة بكلمات لم تتوجد بعد، بلغة محتملة. إنها الفيزياء الكوانتية مطبّقة على المراسلة. عندما أسمع وقع خطوات بوابة العمارة على الدرج ساعة توزيعها للبريد الذي تدسه تحت الأبواب، أفهم ارتعاش الصو في أمام الاختبار الإلهي. وحين أكتشف بأن البريد لا يعدو فاتورة أو إعلاناً أفهم الرفض، الرفض الإلهي العنيف، فأحمل عليه بأنه غير موجود.

لو لم أكن أسكن في عمارة شعبية، لما عايشت هذه التجربة الدينية المرتبطة بوقع خطوات البوابة وهي تأتي بالرسائل. من عليه أن ينزل إلى صندوق البريد، يجهل هذا الامتياز. لا شك عندي في أن قلبه يدق بقوة وهو يفتح الصندوق، ولكن سماع وقع خطوات القدر وهو يصعد الدرج، يولّد انفعالاً لا يُضاهى.

حدثت المعجزة في نهاية كانون الثاني: دُسّ مظروف كُتب عليه بخط اليد تحت الباب. أحسست بارتعاش شديد في اليدين، فجرحت أصبعي وأنا أفض الرسالة بأداة حادة. عند القراءة الأولى لم أستطع

التنفس، وفي النهاية شعرت برغبة في أن أطيل قطع النفس، ليس لأن فحوى الرسالة لم يعجبني: كان نصف الجمل كافياً بأن يجعلني أموت فرحاً، بينما كان النصف الآخر يفصل رأسي عن جسدي.

أحفظ نص الرسالة غيباً، ولكن لا أحتمل تلاوتها هنا. تقول أسترولاب في رسالتها إنها لا تستطيع الاستسلام للاضطراب الذي جعلتها تحس به، إذ أنها تعتبر اهتمامها بأليونور عملاً مقدساً لا يتيح لها بأن تعيش قصة حب. هجرها للكاتبة يعني قتلتها إياها.

لم يكن مأمولاً بأن تحس بهذا الاضطراب، بيد أن الرسالة كانت أسوأ من جواب بالرفض. لقد وضعت إصبعي على ضالتي المنشودة، فانتزعتها مني معوقة نفسياً. كان الدافع نبيلاً لا نقاش فيه، غير أنني رفضت أن أتفهمه. تمنيت أن أخنق المعتوهة من مرةٍ واحدة. أكان ينبغي لأسترولاب أن تضحي بنفسها من أجل تلك الحثالة من البشر! وكيف لهذه الأخيرة أن تدرك سعادة العيش مع هذا الملاك، إذا كان طبق من البطاطا المهروسة كافياً لإرضائها!

وفي الحال كتبت إليها الجواب. آثرت أن أكتم ما أحس به من كره نحو المعتوهة - لو كنت أعربت لها عن شيءٍ منه لكانت شطبتني من لائحة علاقاتها دون إبطاء. قلت لها إن الحب يستدعي الحب: ليس عليها أن تختار بين الحب الذي تمنحه لأليونور والحب الذي أمنحه لها. نستطيع أن نعيش ثلاثتنا معاً. أعاونها في سهرها على الكاتبة، وأنجز عنها قسماً من عملها.

حاولت، وأنا أكتب هذه العبارات بصورة محمومة، إقناع نفسي أن هذا هو ما أنشده. كان غياب صدقي مع ذاتي واضحاً وضوح الشمس: لم أكن متحمساً لأن تشاطرني المعتوهة حبيبتي. مشاهد غريبة تتسلط

على مخيلتي: أتصور المجنونة وهي تقطع خلوتي مع أسترولاب بنوبة جنون. وأتصور عشاءً مع أسترولاب على أضواء الشموع، فتأتي أليونور لتلتهم الأطباق الصغيرة من دون أن تترك لنا وقتاً كي نتذوقها. وأرى الكاتبة تنظف أنفها من الأوساخ لتلقي بها فوق قمصاني، بينما ترجوني أسترولاب أن أتولى تنظيف صديقتها لأنها منهكة من التعب. وأرى المجنونة عارية في حمام ماء مملوء بطيور بط بلاستيكية - كلا لن يصل نبل أخلاقي إلى هذا الحد. أنا لا أختلف عن الآخرين: أنا أخاف من الناس غير الطبيعيين، وأحس بأنني عاجز عن التغلب على هذا الخوف البدائي.

وصلت رسالة أسترولاب بسرعة هذه المرة. أوضحتْ ما كنت أتظاهر بتجاهله، وهو أن مشروعي بعيد عن العقل كل البعد. إن التساكن مع إنسانة كأليونور يستلزم واجبات ومعاناة لا أدري شيئاً عنها. ووجود شخصٍ ثالث يزيد من الصعوبات بدلاً من أن يذللها. تلقيت هذه الجملة كطعنة خنجر، فالشخص الثالث الذي تقصده هو أنا. كيف يمكن أن أفترض شيئاً آخر؟ الرابط الذي يربط بين هاتين المرأتين له الغلبة دوماً. أحسست نحو المعتوهة بحسدٍ قاتل. أجل، لقد تمنيت لو كنت مكانها. لم تكن هي التي تتألم من إعاقتها، إنما هو أنا. على كل حال، ما الذي كان يمنعني من محاكاتها؟ كان بإمكاني أنا أيضاً لعب دور المعتوه، ولم أكن بعيداً عنه كثيراً كأي عاشق ولهان. ليت هذا ما كان ينبغي لإدخال السرور إلى قلب أسترولاب!

كتبت لها، وأنا في حالة من الحنق، رسالة عصية على الفهم - أحس الآن بالسرور لأنها لم تدرك مضمونها. لم يكن من حقها أن تضحي بنفسها بهذا الشكل. حقاً، لم يكن غروري بالقدر الذي يجعلني أظن بأن مروري بجانب محبوبتي يفسد عليها حياتها. ولكن إذا كانت تستطيع إنكار ضرورات الجسد، فإنها لا تستطيع على الأقل إنكار

ضرورات الروح والقلب: كم مضى من زمنٍ لم تقرأ فيه تلك الكلمات من الاضطراب المطلق التي لا يريد أحد العيش من دونها؟ سوف أخضع لشروطها، وأياً كان المكان الذي تقترحه للقاءاتنا فسوف أقبل به. سأعثر حتماً على وسيلة تجعلها سعيدة، وستمتد سعادتها إلى أليونور (سخرت من هذا الأمر، وهو أمر ثانوي أغفلته). كنت قد فهمت بأننا لن نسكن سوية، ولكن يمكننا رؤية بعضنا البعض.

ذهبت لأدس الرسالة في الصندوق كي تستلمه بأسرع وقتٍ ممكن. في الطريق، قلت لنفسي كيف أكون متأكداً من أن هذه الفتاة التي أكاد لا أعرف عنها شيئاً هي فتاة حياتي. لم أنظر قط إلى أحد بالطريقة نفسها. كان حبي لها أكبر مما كنت أبوح به لها.

بعد ذلك حبست نفسي في البيت، آملاً أن ترد على رسالتي بالطريقة نفسها. كنت أصغي باستمرار إلى معزوفة "الفتاة الشابة والموت" لشوبرت، لأطمئن بأن عذابي لا يزال شديداً. تمنيت لو كنت أدخن السجائر، لأن إتلاف الرئتين مع الباقي في وقتٍ واحد يجعل الألم أكثر تلاحماً. للأسف، كلما حاولت إشعال سيجارة، وجدت أن صعوبة ذلك كصعوبة قيادة الطائرة.

تتم الجملة الأخيرة عن غباء، إذ أن قيادة الطائرة أسهل بكثير من التدخين. أولاً، هذا ليس محظوراً بالدرجة نفسها. لا تقع عيناك في أي مكان على عبارة "ممنوع قيادة الطائرات". إذا التقيت بأحدهم وأخبرته بأنك من المدخنين، فسوف يعبس في وجهك، أما إذا ادعيت بأنك تقود طائرة ركاب، فسوف يبدي لك احترامه. ستسنح لي الفرصة بعد قليل لأبرهن للعالم بأن أحد الأخصائيين في فقه اللغة، وهو غير مدخن ويعمل في المجال الاجتماعي في شركة الكهرباء الفرنسية، قادر على

قيادة طائرة بوينغ إلى هدف محدد من دون مساعدة طاقمها. ولكن دعونا لا نستبق الأمور. أفضل إعادة إبراز الرسالة التي استلمتها:

زوئيل،

نلتقي إذاً في شقة أليونور، وفي حضرتها.

أسترولاب

هذه الكلمات، مع أنها باردة كالمكان الذي يحق لي رؤيتها فيه، غمرتني بالفرح. "في حضرتها": بما أن أسترولاب لا تعرض علي بالطبع خطة ثلاثية، يُفهم من ذلك أن لا أمل لي بالجنس على الإطلاق. عبثاً كنت أتوقع ذلك، فلم يكن هذا الخبر مفرحاً. لكنني سأراها. سأرى شاغلة فكري، فهي تأذن لي برؤيتها. أليس في هذا ما يجعلني أسعد الناس؟ هرعت لأرى ما يختبأ خلف فعل "رأى".

رأيت. "أن ترى "يعني" أن تُرى". فقدت القبلة الأولى التي خلتها في منتهى الروعة جاذبيتها، حين لاحظت بأن أليونور ترقبنا. لم تفهم لماذا لم تأكلنا بعينيها. سألتُ أسترولاب أهكذا الحال دوماً عندما تكونين بصحبة عشيق. أجابت بأنني أول عشيق تلتقيه منذ أن تولت أمور الكاتبة. أحسست بالفخر من هذا الاعتراف، ولكن سرعان ما قطعت نظرة المعتوهة إحساسي هذا.

قلت مستفهماً:

- ألا تستطيع أن تنظر إلى جهة أخرى؟

- يجب أن توجه إليها هذا السؤال.

تنفست بعمق وقلت للروائية بألطف ما يكون:

- أليونور، ضعي نفسك مكاني. ألا يزعجك أن يراقبك أحد في لحظة كهذه؟

داهمني انطباع بأنني اخترت أغرب صياغة ممكنة لهذا السؤال. ارتسمت على وجه المخلوقة دهشة كبيرة.

قالت أسترولاب:

- لم يكن لأليونور عشاق في يومٍ من الأيام.

- لكن قد يحدث أن تلتقي بعاشق، أليس كذلك؟

تنحنحت محبوبتي. كان جلياً بأنني أسأت التصرف. عدت مع ذلك إلى تقبيلها، ليس بدافع الرغبة وحسب، وإنما لكي أسترد رباطة جأشي. عندئذٍ نهضت الكاتبة ودنت منا لتراقبنا عن كثب. رأيت عينيها الكبيرتين مصوبتين نحوي، فتوقفت عن تقبيلها.

قلت:

- لا أقوى على ذلك. لا أقوى على ذلك.

قالت أسترولاب محتجة:

- نظرة اليونور بريئة.

- أتمنى تصديق ذلك. هذا لا يغير من الأمر شيئاً. أنا آسف.

قالت المرأة الشابة:

- هذا مؤسف. لقد أحببت هذا.

- ألا تتضايقين من نظرة الغير؟

قالت في دهشة:

- لقد رفعت الكلفة بيننا!

- أجل. وستفعلين أنت الشيء نفسه معي، أليس كذلك؟

- موافقة. وينبغي أيضاً رفع الكلفة مع أليونور.

تجهمت. ألم يكن هناك التباس في هوية هاتين الفتاتين؟ لكان هذا يفسر سبب عدم تضايق حبيبتي من بصبصة المعتوهة. جريت

عندئذ مقاربات أخرى لكي أستميل التي منعتني من أن أعيش علاقة لم أكن لأملها أو أصبو إليها .

- لقد قرأت جميع رواياتك، إنها رائعة وتبرهن على أنك في منتهى الذكاء. لماذا تتصرفين هكذا عندما أكون مع أسترولاب؟

صُعقت الكاتبة، وخيم الصمت.

- لا تفهم أليونور الأشياء إلا لحظة كتابتها .

- حسناً . ألا تستطيعين الكتابة عندما أكون مع أسترولاب؟

لم تحر الكاتبة جواباً . كانت تنتظر دوماً أن ترد محبوبتي عنها .

- أليونور لا تكتب، إنما تملي علي الكتابة.

أصبحت الأمور أكثر تعقيداً . كنت بحاجة إلى حديث مطول مع محبوبتي كي توضح لي تصورها عن علاقتنا . ولكن الحضور الدائم لصديقتها الحشرية قطع الطريق على كل حديث حميمي بيننا . من جهة أخرى، سبق وقلت بأنني سأخضع لشروطها : لم يكن في مقدوري الرجوع عما قلت من دون أن يؤدي ذلك إلى قطع علاقتنا . وكان أكثر شيء تهيبت منه هو القطيعة.

لذا اخترت السلوك الوحيد القابل للتصور: تعلمت تذوق القليل الذي كانت تمنحني إياه. في المساء، كنت أعود من العمل إلى الشقة الباردة، وأتناول العشاء مع المرأتين. كنت أجهد نفسي كي لا أرى طريقة أليونور في أكل السبانخ، وكنت أقرأ الصحف لأسترولاب التي كانت تصغي إلي بأناقة، ثم ألحق بها على الأريكة حيث كان يحصل عناقنا الذي كانت تفترسه المعتوهة بعينيها المستديرتين. وحوالي الساعة الحادية عشرة ليلاً كنت أستأذن بالانصراف كخاطبٍ من الماضي، وأعود في المترو إلى منزلي حزيناً، محبطاً، مرتعشاً .

في عطلة نهاية الأسبوع، كنت أهبط عليهما في الصباح، فأحضر جلسات الإملاء التي علمتني الإعجاب بالكاتبة، وزادت من تقديري لمساعدتها المخلصة. كانت أليونور تتكلم كعرافة مدينة الرها فتصب ذاك النثر البيثيوري[1] ببطء تارة، وبتشنج تارة أخرى.

لم أكن أفهم كلمة واحدة مما كانت تنطق به، إذ كنت عاجزاً عن فهم اللغة التي كانت تتكلم بها. في البداية، اعتقدت أن أسترولاب تقوم بالترجمة الفورية، فنفت لي ذلك قائلة إنها تدوِّنُ حرفياً تحليقات الكاتبة في عالم الرواية. امتدحت براعتها في الاستماع.

قالت:

- إنها مسألة اعتياد.

- أحب أن يرى الأمريكيون ثنائيتكما هذه، فهم يسخرون من مفهومنا الأوروبي عن الإبداع الأدبي: يقولون إننا نحن الماديون نصبح لاهوتيين بشكلٍ منافٍ للعقل حين يتعلق الأمر بالإلهام. ولذلك يقولون بعكسنا: إن الكتابة يمكن تعليمها.

- لا يمكن تعليم الكتابة، لكن يمكن تعلمها، فأليونور لم تهتدِ إلى فنها بين ليلةٍ وضحاها. لقد عملت لفترة طويلة على صقل أداتها، بالمطالعة أكثر من الكتابة.

كانت المعتوهة تواظب على المطالعة، ولكن ليس في حضرتنا للأسف: لم تكن تخفي بأنها كانت تجدنا أكثر إثارة للاهتمام مما كان يغذيّ مخيلتها في العادة. في الحقيقة، لم تكن تراقبنا: كانت تقرؤنا.

١- إشارة إلى الألعاب البيثيورية التي كانت تقام في الرها كل أربع سنوات على شرف أبولون. - مترجم.

كانت محبوبتي تعدُ قوائم بمشترياتها، وكنت أذهب لإحضارها لها. وعندما كانت ترى أنها سجلت عدداً كبيراً من السلع، كانت ترافقني، ولكن ذلك كان نادراً جداً. كنت ساعتها أعيش لحظات حلوة: كان متجر البيع يبدو في عيني صالوناً صغيراً للعشق، وكان الناس الكيّسون يحيدون بأنظارهم عندما أقبّل حبيبتي. كنت أطيل قدر المستطاع انفراد بعضنا ببعض في قسم الخضار التي تنضج قبل الأوان، ولكن كانت تأتي دائماً اللحظة التي تقاطعني فيها أسترولاب وهي تقول:

- مؤكد أن أليونور تشعر بالقلق الآن.

كنت عندها ألوذ بالصمت. ومع هذا كنت أعتبر نفسي سعيداً، فمن الأفضل أن أكون برفقة هذه المرأة على ألا أكون برفقتها.

وفي المساء، سواء كان الوقت الذي قضيناه سوية ممتعاً أم لا، لم يحدث قط أنني لم أتألم لفراقها. وحتى الدفء الجميل الذي كان يشيع في المترو، لم يكن ليعزيني على هذا الفراق. كنت أؤثر أن أتجمد وإياها.

ها قد جاء الشتاء ببرودته الشديدة. عبثاً كنت أتعلل بحضوري، فقد كانت المرأة الشابة تتصلب في موقفها من التدفئة، ولم يكن عدم

استخدامها لها من باب التوفير. وعلاوة على ذلك لم تكن تسمح لي بدفع الفاتورة.

- ينتابني شعور بأنك تحبني من باب الإحسان.

- لا أفكر بك، بل بنفسي. إنني أموت من البرد.

- هيا! حين تأخذني بين أحضانك تشعر بالدفء.

- الأمور نسبية: أنا أقل تأثراً بالبرد منك.

كانت أسترولاب تلتحف دوماً ثلاث سترات، وتراكم فوقها عدداً من البنطلونات كأنها أحزمة عفة مخيفة، فيبقى جسدها لغزاً.

كنت أرى منها يديها الدقيقتين ووجهها الناعم. كنت حين أقبّل أنفها المتجمد، أحس بألمٍ في شفتي. كنت أتهيب لحظة الفراق. عندما كانت الأبواب تنغلق في عتمة الليل، كنت أعبر من عالمٍ إلى آخر. كنت أعبر لحظتها حلقة من نار. كانت الأفكار التي تسكنني في غيابها فظيعة. حقدت عليها بسبب الأمر الذي فرضته: كنت أعلم بأنني لست عادلاً ما دمت قد صرحت بأنني سأقبل بكل شيء.

وسرعان ما تبدل كرهي ليصبح رفضاً للجنس البشري بلا قيدٍ أو شرط، وأنا ضمناً. ولهذا أيضاً ليس الانتحار كافياً في نظري: يجب أن يلقى أناس كثيرون حتفهم في الانفجار، إضافةً إلى تدمير أحد الإنجازات العمرانية التي يفخر بها هذا الجنس.

منطقي هو التالي: أسترولاب هي بلا منازع أفضل كائن التقيته على هذا الكوكب. ليس لديها مناقب، هي المناقب بعينها. ولم يمنعها هذا من معاملتي بقسوة شديدة. فإن كانت صفوة البشرية لا تساوي أفضل من ذلك، فلننته من العملية، وبسرعة. على كل حال فأهمية ذلك

لا تقارن بالنهاية المفجعة التي سأحتاجها : لن أدمر إطلاقاً سوى صرحٍ معماريٍ ومئة شخص تقريباً . ينبغي ألا يأمل مبتدئ بمفرده أكثر من ذلك. عسى أن تكون ضربتي الأولى ضربة معلم! ها أنا ذا أستبق الأمور من جديد .

قالت أليونور بصوتٍ عالٍ إنها ستخلو بنفسها من أجل "عمليتها الكبرى"، لذا انتهزت الفرصة لأبوح أخيراً لمحبوبتي بمكنون صدري:

- لا تحتاج إليك حينما تكون نائمة. يمكنك الجلوس معي.

- سبق أن تكلمنا في هذا الأمر.

- أعلم ذلك. ولكن في هذه الأثناء أصبحت الرغبة لا تحتمل، أليس كذلك؟

- كان ينبغي أن تتوقع ذلك، فقد حذرتك.

- لو أنك ترغبين بي كما أرغب بك، فلن تكلميني بهذه الطريقة.

تنهدت. في لحظاتٍ كهذه كنت أكرهها وأحبها بالتساوي.

قلت محتجاً:

- قولي شيئاً.

- أكرر إذاً ما سبق وقلته: سنكون دائماً في حضرة أليونور.

- حسناً. لنلحق بها في المرحاض.

- لا تكن سوقياً، يا زوئيل.

- أحاول فقط أن أبرهن لك عن تهافت قانونك.

- مهما تكن قسوة القانون، يجب العمل به.

- لا شيء يمنعكِ من تغيير هذا القانون.

- أقسمت لأليونور بأنني لن أهجرها مهما حصل.

- أراهن بأنها نسيت هذا القسم.

- أما أنا فلم أنسه.

ساعتها، أردت قتلها، إذ لم أعد أعرف كيف أتصرف. عندئذٍ عبرت تفكيري فكرة أنقذتني مؤقتاً على الأقل.

- القانون يُطبّق عليك أيضاً. ماذا لو عرضت عليك لقاءً ثلاثياً؟

قالت قلقة:

- لقاءً جنسياً ثلاثياً؟

- كلا.

- في هذه الحال، أنا موافقة بالتأكيد.

طرت فرحاً. سوف ترى ما سوف ترى.

- أعود السبت القادم ظهراً. اجعلا فطوركما خفيفاً.

- هل هذا اللقاء يتضمن طعاماً؟

فكرت للحظة، ثم قلت:

- يمكن قول ذلك.

- هذا رائع! أنا وأليونور نحب الأكل كثيراً.

- لا أستطيع أن أعدك بأنه سيكون طيباً.

رجعت أليونور من المرحاض وعلامات الرضا التام ترتسم على محياها.

أخبرتها أسترولاب بأنني سأحضر لهما غداءً السبت المقبل. صفقت المعتوهة بيديها. بدأت أشعر بالتهيب.

- سوف تأكلان أي طعام أجلبه لكما، أليس كذلك؟

قالت أسترولاب محتجة:

- طبعاً، وهل تظن بأننا سيئتا التربية.

في اليوم الموعود جئت بأكياسٍ كبيرة مملوءة عن آخرها حتى لا أخيب أمل المرأتين الشابتين. في الحقيقة، كنت حشوت تلك الأكياس بأشياء لا قيمة لها كي أعزز رواية الغداء. أحضرت ثلاث علب من الأقراص مع قرص مدمج: جيب واحد كافٍ لاحتوائها.

وضعت القرص المدمج في جهاز الستريو.

- عملت أيضاً حساباً للموسيقا إلى جانب الطعام! شيء رائع!

كان لكل فتاة علبة ضمّت غراماً واحداً من البسيلوسيب الغواتيمالي. أما علبتي فقد ضمّت ضعف ذاك المقدار:

هذا أقل ما ينبغي لمتعاطٍ قديم.

سألت أسترولاب وهي تتناول علبتها الصغيرة:

- ما هذا؟

قلت:

- فاتح شهية (كان ذلك هو الوجبة بأكملها).

فتحت كل منهما علبتها. صاحت الكاتبة فرحة. للحظة تساءلت إن كان من الممكن أن تعرف شيئاً عن الأمر.

علّقت أسترولاب وقد دبّ فيها الحماس:

- معك حق، يا أليونور. جميلة جداً هذه الفطور المجففة. هل يمكن أكلها هكذا؟

- يُستحسن ذلك.

بدأت اللحظة الصعبة، وخصوصاً بالنسبة إلي أنا المدمن: من الغريب أن الطعم الغث يصبح أصعب احتمالاً عندما نعتاد عليه. احتجت إلى شجاعة فائقة كي أمضغ حصتي من الفطور.

قالت أسترولاب بأدب يستحق الإعجاب:

- يا لها من نكهة فريدة!

أما أليونور فقد زأرت من المتعة. قلت لنفسي بأن هذه أول مرة أقدم فيها فطور هلوسة لمعتوهة، وقد يعرض ذلك خطتي للفشل. ملأت ثلاث كؤوس بالماء ودعوتهما للشرب فانصاعتا. شربت معهما فأحسست بارتياح لتنظيف فمي من هذا الطعم التفه.

أمر غريب، فجميع الفطور طيبة المذاق حتى القاتلة منها، فلماذا فطور البسيلوسيب هي وحدها سيئة الطعم مع أنها مفيدة كثيراً؟ لعل الطبيعة تنبه بذلك من يأكلها قائلة: انتبه، سوف تعيش تجربة فريدة.

قالت أسترولاب:

- لماذا كأس الماء؟

أجبتها:

- لكي تفعل الفطور فعلها .

ظنت بأن الأمر يتعلق بنظام غذائي، فلم تقلق.

أدرتُ جهاز الستريو فصدحت الموسيقا . أمامي نصف ساعة كاملة قبل ظهور الأعراض. كان توقيت عمليتي كتوقيت عملية سبطو على مصرف. فردتُ أغطية صوفية فوق أرضية الغرفة.

سألت محبوبتي:

- هل تحضّر قصفاً على الطريقة الرومانية؟ هل سنأكل ونحن مضجعين؟

أجبتها جواباً عاماً . في الحقيقة، إن كثيراً من الناس لا يستطيعون الوقوف على أقدامهم عندما ينطلقون في الهلوسة. لذا كان من الأفضل تهيئة أرضية الغرفة.

تابعتْ تسأل:

- ما هذه الموسيقا؟

- أفكس توين Aphex Twin

- أليست غريبة؟

- بعد قليل لن تجدينها غريبة.

- هل تعني أن أطباق الطعام ستدهشنا لدرجة ننسى معها هذه الموسيقا؟

- وجبة الطعام انتهت. لم أحسب حساباً لشيء آخر.

ساد الصمت.

- زوئيل، أخشى أن تكون قد بالغت بضعف شهيتي للطعام.

- لقد ابتلعنا نحن الثلاثة فطور هلوسة، وسوف نحلق بعد عشرين دقيقة.

توقعت أن أسمع منها توبيخاً أستحقه، إذ لا يُعطى أحدهم فطور هلوسة من دون علمه. إن كنت قد ارتكبت هذا الفعل الذي لا يغتفر فليقيني بأن أستيرولاب كانت سترفض لو علمت بشيء. ولاستحالة ممارسة الحب معها، أردت أن أشاطرها تجربة فريدة من نوعها.

قالت محبوبتي فرحة:

- أتدرين ما الأمر، يا أليونور؟ سنهلوس!

أوضحت لهما أن البداية ستكون مزعجة، ولكن الرحلة ستكون رائعة بشرط عدم القلق.

- من أين تحصل على هذه الفطور؟

- لا أحد يكشف عن اسم مموله.

- هل أنت زبون منتظم؟

- اعتدت على شرائها، إن كان هذا يريحك.

كنت أحسد عذرية المرأتين، فلم يكن لديهما أدنى فكرة عما سيكتشفانه. أما بالنسبة إلي فخبرتي كبيرة برحلات الهلوسة الناجحة والفاشلة بحيث اختلطت مسحة من الاستكانة بفروغ صبري. انتهزت لحظاتي الأخيرة على الأرض اليابسة لأنتقد انتقاداً لاذعاً تعديل القانون الهولندي في هذا الخصوص. وحين بلغت أوج غضبي رأيت وجه أستيرولاب قد تغير.

قالت في همس:

- أو! لا! لا!

وفي الحال أمسكتها من يدها لأرافقها.

- كل شيء على ما يرام. غالباً ما يشعر ركاب الطائرة بالدّوار لحظة إقلاعها. ولا فرق هنا سوى أنك على متن صاروخ: يدوم الانزعاج فترة أطول بقليل. قريباً تحلقين في الفضاء، وترين الأرض من علوٍ شاهق.

أنّت أليونور بدورها. أمسكتها أسترولاب من يدها، وطمأنتها بطريقتها الخاصة. كنا نشكل سلسلة.

عندما حانت لحظة التقيؤ، أخذت أبتلع ريقي كالمجنون بالقوة المعتادة: الغثيان هو إشارة النجاح. قلة من التعساء لا تؤثر فيهم فطور الهلوسة فلا يحسون بهذه الأحاسيس الأولية. أوضحت للصديقتين بأن هذا الإحساس الكريه مؤقت، وبأنه يشكل جواز عبور مدهش إلى مناطق رائعة.

قلت لأسترولاب:

- هل بدأت رحلتك؟ احكي ما ترين.

قالت منتشية:

- أرى جداراً.

هكذا أشارت إلى الجدار الضارب إلى البياض الذي يفصل شقتها عن شقة جارها، والذي يُخشى انهياره بسبب قدمه. لم أكن قد بلغت بعد ما بلغته هي من علوٍ كي أرى ما تراه، لكنني كنت أستطيع التخمين:

لا يتخيل المرء الكنوز الموجودة في مساحة بيضاء لمن أشرع أبواب الإدراكات الحسية. تمددت أليونور فوق أحد الأغطية.

قلت لها:

- هل أنت بخير؟

أذعنت منبهرة، وأغمضت عينيها. هنالك مدرستان: الرحلة الخارجية والرحلة الداخلية. تنتمي الكاتبة بجلاء إلى النوع الثاني. يوافقني ذلك، إذ أنها ستبقي عينيها مغمضتين، ولن أعاني من ثقل حضورها أكثر مما ينبغي، أما أسترولاب فقد كانت تفتح عينين مستديرتين كأنهما صحنين. الهلوسة تجعل الإعياء مستحيلاً، وأعرف أنه إذا لم أتدخل فستُعجب بالجدار المقابل لمدة ثماني ساعات. دفعتها لرؤية شيء آخر، هو وسادة زرقاء من تصميم ناتيه وضعتُها فوق ركبتيها. في تلك اللحظة أُشرعت أبوابي، واستغرقت في ذاك التأمل كما أحب أن أستغرق في محبوبتي. عمدت إلى إرشادها لأطمئن لتواطئها.

- هل رأيت من قبل شيئاً يضاهي هذا اللون جنوناً؟ ادخلي فيه، حسي بوجوده. امتلئي بزرقة هذه الوسادة من تصميم ناتيه.

- ناتيه؟

- رسام فرنسي عاش في القرن الثامن عشر. ابتدع هذا اللون. تخيلي ماذا يعني ابتداع ذلك؟

قالت همساً:

- إنه جميل حداً.

- لماذا تتكلمين بصوتٍ منخفض جداً؟

- بما أنه في منتهى الجمال فهو من الأسرار.

ضحكتُ: فهمت ما تقصد. صحبتها إلى قلب اللون الأزرق الذي غمرنا جماله بفرحٍ طاغٍ. وضعنا أنفينا على الوسادة لنلج في هذا الاكتشاف خير ولوج.

قالت أسترولاب:

- كأنني لم أرَ الغرفة من قبل. كأنني لم أرَ شيئاً من قبل. كأنني لم أرَ لوناً من قبل.

- هل استعدت رؤيتك للأشياء عندما كان عمرك سنة، أو سنتين. لاحظي كيف يجيل الأطفال النظر حولهم في المترو: إنهم في أوج هلوستهم، هذا أمر بديهي.

- من يصدق أننا نعيش وسط هذه الروعة ولا نراها!

- إننا نراها الآن، وهذا هو المهم.

- لماذا نكفّ عن رؤيتها ونحن نكبر؟

- بالضبط لأننا نكبر. نحن نتعلم قوانين البقاء القاسية التي تجبرنا على تركيز انتباهنا فيما هو نافع. تنسى عيوننا الجمال، وبفضل الفطور نسترد إحساساتنا عندما كنا أطفالاً.

- ألهذا السبب أيضاً أنا في غاية السعادة؟

- أجل. تصوري: نحن سعداء كأطفال في عمر سنتين، ويتمتعون باستقلالية كالكبار.

- لست مجبرة على تصور هذا الشيء، فأنا أعيشه.

قبلتها. تطلعت في وجهي، وانفجرت ضاحكة.

قالت وهي تتحسس وجنتيّ:

- هنالك نقش مكتوب يغطي جسدك.

- اقرئيه إذاً.

- لا أستطيع فالحروف مكتوبة باللغة الصينية. إنك تشبه تمثالاً ذهبياً مصغّراً لبوذا.

رحت أتأملها وهي تتأملني. النظر إلى أسترولاب يصيبني بالجنون، والنظر إليها من أعماق هلوستي يفاقم جنوني، وخصوصاً أنها كانت تهلوس أيضاً، وقد بدا ذلك واضحاً: كانت عيناها تملآن وجهها، وكان وجهها يملأ الغرفة.

سألتني باندهاش:

- أأنت عاشقي إذاً؟

- آمل ذلك. هل هناك مشكلة؟

- كلا، دعني أرَ ما أنت مصنوع منه.

طفقت تتفقدني، وحتى أنها قلبت أذنيّ. كان تُدني رأسها، الذي بات ضخماً، من رأسي بانتظام، فكنت أرى عينها النجلاء تدخل في منخريّ. كان ينتابني شعور بأنني ألعب لعبة الطبيب مع عملاقة. رفعت ثيابي وأنصتت إلى كل قطعة من جسدي، ووضعتْ أذنها فوق ظهري، وصدري، وبطني.

همستْ في نشوة:

- أسمعُ صوتاً لا يصدق.

- إنه صوت الرغبة.

أرهفت السمع من جديد، وقد استولت عليها الحيرة:

- لرغبتك صوت كصوت جلاية الصحون.

- أجل، فرغبتي متعددة الوظائف.

أسبلت ثيابي معلنة نهاية المعاينة. وجدت أن هلوستها لم تحد من مثابرتها على تطبيق قانونها البغيض، فأحسست بالحقد نحوها.

أمامنا كانت أليونور ترقد كأنها ميتة.

- هل تعتقد أنها بخير؟

- أجل. انظري كم هي هادئة قسمات وجهها. إنها تهلوس على نحوٍ أفضل منا.

- لماذا تبقي عينيها مغمضتين؟

- إنها على صواب. حاولي.

أطبقت محبوبتي جفنيها، وأطلقت صيحة.

علّقتُ:

- أليس كذلك؟

- في رأسي معرض للفن الحديث.

- أجل، لست بحاجة بعد الآن للذهاب إلى مركز بومبيدو للفن.

فتحت عينيها مذهولة.

- هل كاندينسكي، ميرو، وآخرون نسيت أسماءهم، قد تناولوا جميعهم فطور الهلوسة؟

- أجل.

كنا بدأنا بحديث المسافر التقليدي الذي يصيب بالملل من لم يجرب الرحيل.

- و روتكو أيضاً؟

- أجل.

- و نيكولا دو ستال؟

- بالتأكيد.

كان كل عضو جديد في النادي يلقى الترحيب بحماس شديد، كأنه أخ - كان يمكن أن يدوم هذا النوع من الحوار لساعات. فضلت أن أضع حداً لهذه الأسطوانة لأجتذب انتباه أسترولاب إلى الظاهرة الأهم:

- والآن أريد أن أريك ما هو أجمل شيء في الغرفة.

جلستُ على الأرض، ورجوتها أن تجلس إلى جواري، وأشرت إلى أرض الغرفة التي لا قيمة لها في العادة. ألصقت عينيها بها. أطلقت صيحة إعجاب. أردت مع هذا أن أتأكد من أن رؤيتنا متطابقة.

- هل ترين ما أرى؟

قالت:

- أرى جليداً. أرى بحيرة جليدية.

- طبعاً.

- أرى تلك الطبقة الجليدية الشفافة تماماً، وأرى تحتها عالماً مغموراً ذا جمال مميت.

- احكي!

- هناك زهور متجمدة في الجليد لم يرها أحد قط، تماثيل من أوراق الزهور تصور نسوة ضربها البرد كالصاعقة. لا يعلمن أنهن متوفيات، انظر! كأنهن يحاولن شق الجليد، ويظهر أن شعرهن لا

يتوقف عن النمو، وربما تكون هذه الزهور شعر إحدى المتوفيات. أجل، إني أراها، يا زوئيل. تعال وانظر، هل تراها؟

- كلا.

- بلى، انظر، إنها بين الأعمدة الرخامية.

- هذا معبد أرتميس في الرها.

- ألم يندثر هذا المعبد منذ زمنٍ طويل؟

- أجل. أنت وأنا نعرف مكان وجوده: إنه تحت أرضية غرفتك!

- وهي، هل تراها؟

- كلا. لا يمكننا مطلقاً رؤية الشيء نفسه. كفانا روعة أننا نميز معبد أرتميس، وهذا دليل على حقيقة وجوده.

- للأسف سوف ننساه.

- كلا، لن ننسى شيئاً مما نعيشه خلال هذه الرحلة.

- ما نراه لن نراه بعد ذلك.

- هذا صحيح. ولكن سنظل نتذكر. لن نرى الأشياء بعد الآن كما كنا نراها من قبل.

- ما هو التطابق السري بين "الرها" وبين شقة تعيسة في حي مون أورغوي في باريس؟ ناهيك عن الرابط الذي قد يجمع القرن الخامس قبل الميلاد بعصرنا الحاضر؟

- الرابط هو ذهننا. نحن مختارون لبعضنا البعض من قبل سقراط.

ضحكت، وعادت تستغرق في تأمل هذا العالم الذي لا يخطر على بال أحد. بقيت وحيداً. كان ما قلته هو جوهر تفكيري. بدا لي واضحاً

أن شبيه ما قبل سقراط أقوى وأصلب من شبيه أفلاطون. أفلاطون: تناول هو الآخر الفطور.

لا تشبه أسطورة الكهف عند أفلاطون حكاية رحلة هلوسة، لكنه استمد منها خدعاً أشجبها. كيف نقبل بنظرية الحب لشخص يفصل الروح عن الجسد، ويضعهما في تراتبية، كما أنه يضع كل شيء في المجتمع في تراتبية؟ لا بد أن الحب كان شيئاً آخر قبل سقراط.

تأملت المسافرتين. كانت إحداهما تتأمل عالم ما تحت الجليدَ بعينين مفتوحتين نجلاوين، جاثية على ركبتيها. وكانت الأخرى تستكشف غناها الداخلي بعينين مغمضتين، مستلقية على ظهرها.

لا بد من الإقرار بأن أليونور قد تفوقت علينا. لم يحدث أن بلغتُ قط مثل هذه النوعية من الهلوسة. كنت أعطيت للمرأتين الشابتين مقداراً من البسيلوسيب يبعث على الاسترخاء، فبدت الكاتبة وكأنها تجرعت أربعة أضعاف مقدارها: لقد ارتقت إلى ما يسمى بحالة النشوة. كانت أسترولاب تعيش استرخاءً رائعاً، وكانت أليونور تبتدع واقعاً مجهولاً.

انتهى "أفكس توين" من أغنية، وبدأ بالأغنية التالية، وكانت بعنوان "Zigomatic ١٧". كانت موسيقاها المتقطعة ترسم تخطيطاً كهربائياً للدماغ بشكل شجرة باوباب صوتية. وفجأةً أدركت من تكون أليونور مالاز، ونطقت بهذه الكلمات المجنحة: أليونور، أنت شجرة باوباب، ولهذا تراوحين في مكانك. لقد جرّب الأفريقيون الأوائل جميع الأشجار، فوجدوا أن لكل شجرة فائدة، فهذه شجرة جيدة الاحتراق،

وتلك تُصنع منها أقواس صلبة وأدوات متينة، هذه شجرة تجود بالمضغ لساعات، وتلك تنمو بسرعة كبيرة بحيث تستر منظراً طبيعياً في سنة، هذه شجرة تضفي على اللحوم رائحة طيبة عند تقطيعها، وتلك تغسل الشعر، هذه شجرة تعيد الفحولة لمن فقدها في الصيد. وحدها شجرة الباوباب لا تصلح بالتأكيد لأي شيء. لم يكن اختبار خشبها غلطة. ماذا نفعل بشجرة لا تصلح لشيء، وماذا نفعل أيضاً بما لا يصلح لشيء سواء أكان شجراً أم بشراً. نجهر بأنه مقدس، وتلك هي منفعته، إنه ينفع في أن يكون مقدساً. لا تلمس شجرة الباوباب فهي مقدسة، نحن بحاجة إلى المقدس، إنه ذاك الشيء الذي لا نفقهه ولكنه يساعد فيما لا نعلم، إنه يقدّم العون، فإذا شعرت بانقباض قلبك فاذهب واجلس في ظل شجرة الباوباب. احذ حذوها، كن كبيراً ولا تكن نافعاً. ابتدع شبكة من الأغصان ولا تفكر في شيء آخر غير التكاثر. لا توجد شجرة أفريقية في ضخامة الشجرة التي لا تنفع شيئاً. الآن فهمت بأن الكبير غير نافع، إننا بحاجة إلى الكبر لأنه مطلق، المسألة مسألة ضخامة وليست مسألة بنية.

حين تضمر شجرة الباوباب بشكلٍ يدعو للعجب، تتحول إلى قرنبيط أخضر، وهذا القرنبيط الأخضر صالح للأكل. الباوباب هو القرنبيط الأخضر الكوني الذي تحدث عنه سلفادور دالي. وأليونور هي النسخة البشرية للظاهرة، وأبعادها في منتصف الطريق بين الباوباب والقرنبيط الأخضر، ولهذا السبب تسحر كتاباتها العقول.

قالت أسترولاب:

- ماذا تقول؟

كان إذاً أنا من نطق. كنت أسمع صوتاً، ولا أزال أسمعه. أسترولاب، هل تسمعين دقات قلبي، هل تريدين الولوج إلى الضجيج

الأصم الذي ينبض في داخلي، هل تريدين أن تعانقيني بجسدك كله، وتُسمعينني موسيقا كاتدراتئيتك؟

أمدُ يديَّ نحوك، برودة يدك ليس لها اسم لشدتها. أحاول أن أجعلك تشعرين بالدفء. أحيط جسدك المنكفئ بذراعيّ وساقيّ، أنفث عليك نفسي الفاتر كما يفعل نافخ الزجاج، أصنع حولنا فقاعة، وها أنا ذا أحكم الطوق حولك إلى الأبد. لاحظت أنه لا وجود للزمن في رحلة الهلوسة، لا فرق حقاً بين الدقيقة والساعة والقرن. عانقيني بساقيك وبذراعيك كما عانقتك، نحن فقاعة بشرية. هذه الأغنية تدعى "Zigomatic ١٧"، وهي تدوم منذ ألف سنة، سأصنع لك أشياء مفيدة تعيد إليك دفأك، لا تقلقي على أليونور، يمكن أن نمارس الحب في حضرة شجرة باوباب، فهذا لا يضايق القرنبيط الأخضر العملاق. أشعر مثلك بشعر بدني ينتصب من الخوف، من الرغبة ولكن أيضاً من البرد. أنا معتاد. رحلة الهلوسة تصيبنا بالبرد الشديد كي تذكرنا بمعنى الحياة. لولا انفجار الشرارة التي تولّد عنها الوجود، لاستشرى في الكون قانون البرد اللامتناهي. ليس العالم سوى هذا النزاع الدائم بين البرودة والحرارة، بين الموت والحياة، بين الجليد والنار. ينبغي ألا ننسى مطلقاً أن البرد قد سبق الحرارة إلى الوجود، لذا فهو الأقوى. ذات يوم سوف يتغلب علينا، وحتى ذلك الحين يجب أن نعيش ونحاربه. أنت الثلج الذي سأقوم بإذابته.

أفلح في نزع ثيابها، وأنا غير مصدق. من السهل جداً اكتشاف الجمال، إذ يكفي تجريده من ثيابه. للأسف بانت أمامي المعضلة في الحال، أسترولاب مصنوعة من حجارة حقيقية، كان ينبغي أن تخبريني بأنك تمثال، تنظر إلى نفسها، تتحسس جسدها، ماذا حدث لي، عادة لا أمتلك هذا الجسد. أأنا هكذا أينما أكون. نعم أنت من حجارة أينما

تكونين. تضحك. لا أجد ذلك مضحكاً. تسألني إن كنت قد مارست الحب من قبل تحت تأثير الفطور، كلا، ولكن أصدقاء لي فعلوا ذلك، لا بد أن هذا ممكن، تسألني هل هذه هي الكينونة من حجر، أجل على ما أعتقد. من المخيف أن تتعلم في مثل هذه الظروف حقيقة عبارة من العبارات. أداعبها ممنياً نفسي بأن أعيد لها جسدها الآدمي، أسترولاب تزداد تحجراً. هل يعقل أن تتحجر إلى هذه الدرجة. تضرب بطنها بقبضتها مذهولة، تقول لي إنها لا تشعر إلا بألمٍ في قبضتها، تختم قائلة: أنا تمثال من الجليد.

أحضنها بذراعي، يائساً. كم سيدوم تحجرها، هنا مربط الفرس. أسترولاب، لا وجود للزمن في رحلة الهلوسة، إذا تحجرت لمدة عشر دقائق فكأنك تحجرت لمدة عشر ساعات أو عشرة أشهر، نحن محبوسون في منطقة لا زمانية، هذا رائع عندما نكون سعداء، وعندما نتألم فهذا هو الجحيم. يكفي ألا نتألم، ولكن كيف لا نتألم عندما نكون في أوج الرغبة بينما الآخر حجر. تضحك. لقد باءت خطتك بالفشل، يا زوئيل المسكين.

تذهلني ضحكتها. أدرك أنها لا تتألم، بل ربما تجد في هذا مرادها، أنا وحيد في إحباطي. إن هي تحبني، فحبها كحب التماثيل الجليدية. أتأمل جمالها البعيد المنال. إن يقهرنا الموت، إن نستسلم له، فلأنها جميلة ويستحيل ممارسة الحب معها.

تنتهي أغنية "Zigomatic ١٧"، وبالتالي فقد دامت مأساتي الغبية ثماني دقائق. الموسيقا هي الساعة الرملية لرحلة الهلوسة. لم أصب شيئاً في ثماني دقائق، وشعرت بأنها كانت سنة. ترتدي أسترولاب ثيابها، وتنصحني أن أفعل الشيء نفسه. أعدت لبس شكة الألم. تقول لي ليس

في الأمر ما يقلق، وأن هناك شيئاً مشتركاً بيننا. هناك محاولات للعزاء تضاعف الألم مئات المرات. لزمت الصمت. في الحقيقة، ولت ساعة التشارك. تتكور أستيرولاب على الأريكة وتستغرق في تأمل عبوة غذائية، ويبدو أن لها وقعاً كبيراً في نفسها. لم تتحرك أليونور من مكانها قيد شعرة، لا شك أنها تتواصل مع الكائن الأسمى.

ضمير المفرد يراقبنا. نحن ثلاثة غربيين، وكل منا يهلوس من جانبه. لا يتناول القربان كل من يريد. منذ قليل، وتحت أرض الغرفة، رأيت وأستيرولاب معبد أرتميس عالقاً في الجليد. كانت رؤيتنا متطابقة ما عدا شيء واحدٍ: قد أبصرت محبوبتي امرأة تحت الجليد، وكانت هي تلك المرأة.

نتجت من ذلك أفكار ذات حدة فائقة. يكفيني ما خبرت من "رحلات الهلوسة السيئة" لأحذر من هذا التعبير. لو لم نصبح قبيلة من المتصنعين لأردنا جميعاً أن نعيش هذه الرحلات إلى نهاية الجحيم. لماذا نسمي الرحلة المكوكية إلى جهنم برحلة هلوسة سيئة؟ مجرد أننا نعود منها يكون كافياً للتخفيف من حدة هذه الصفة، وأجاهر بالقول بأن معرفة جهنم تستحق الاهتمام.

ما نسميه بـ "برحلة هلوسة سيئة" يتضمن وضوح الرؤية. كانت أول "رحلة هلوسة سيئة" لي في المترو. رأيت فجأةً البشاعة التي كانت تطوقني. لست أنا من ابتدعها، فقد كانت موجودة من قبل، لكنني كنت محمياً بذاك الفلتر الذي يدعى اللامبالاة العادية. أتذكر بأن بشاعة العالم بلغت ذروتها في ربطة عنق الشخص الجالس مقابلاً لي. لم يكن ما رأيته حلماً: إن ربطة العنق تلك كفيلة بإخافة العالم أجمع لو أنه أولى اهتماماً قليلاً بها. أتذكر بأنني أمسكت نفسي عن إصدار الأمر

لصاحبها بنزعها لأرميها من نافذة المترو. كنت سأقول له "صدقني، هذا في مصلحتك". كان ذلك سيكون أيضاً في مصلحتي. كانت رسمة ربطة العنق النتنة تكتم أنفاسي، تعذبني، تجعلني أرى الطوفان على أنه قضية عادلة، شريطة أن يجرف معه قطعة القماش هذه.

ألم أكن مصيباً؟ كيف أمكن أن تعمى أبصارنا لنجد البشاعة ممكنة الاحتمال؟ "لكلٍ إنسانٍ أذواقه الخاصة! ماذا لو كان هذا الشخص مبسوطاً بربطة عنقه!" هذا ما يعبر تفكيرنا عندما لا نكون تحت تأثير الهلوسة. عندما نكون في رحلة هلوسة نفجّر مثل هذا الكلام الخادع. يمثل لبس مثل هذه الربطة إهانةً، اعتداءً، فعلاً احتقارياً. إن مثل هذا السلوك ينضح بالحقد، فهذا الشخص يحتقرني، ويحتقر الجنس البشري.

"رحلة الهلوسة السيئة" تمرين للصفاء الفكري الذي يكشف لنا عن الجحيم الكامن في ربطة عنق راكب المترو. أكدوا لنا فيما مضى بأن الجحيم في الأرض، بأن الجحيم هم الآخرون! وأخيراً تأكد بشكلٍ موثوق بأن الجحيم ليس الآخر بكليته، فربطة عنقه كافية لوحدها.

في الحقيقة، لا يوجد فرق بين رحلة الهلوسة السيئة ورحلة الهلوسة (le bad trip et le trip): الأمر يتعلق بوضوح الرؤية. فالبكاء من السعادة أمام زرقة وسادة من تصميم ناتيه هو موقف مشروع كما هو الإحساس بألم فظيع أمام ربطة عنق شنيعة لأحدهم.

إذا كانت شناعة ربطة عنق رجل قد سببت لي ألماً فظيعاً إلى هذا الحد، فمن الممكن تخيل مطلق عذابي من جرّاء فشلي الجنسي مع أستيرولاب. لقد امتلأت حقداً على كل شيء: على نفسي، على أليونور، على فطور الهلوسة الفواتيمالية، على انتفاء فطور الهلوسة الفواتيمالية،

على شركة الكهرباء الفرنسية، على جسد محبوبتي الذي تحجر، وأخيراً وليس آخراً، على ضحكتها وهي تقول: "لقد باءت خطتك بالفشل، يا زوئيل المسكين!".

ومع أن الغلطة ليست غلطة أسترولاب، فقد حقدتُ عليها حقداً شديداً. أجل، لقد باءت خطتي بالفشل. أليس في هذا ما يستوجب لعن القدر؟ أما هي، فقد كانت تضحك.

في تلك اللحظة بان هدفي: أسترولاب أسمى ما أبدع الكون من مخلوقات، وإذا كانت هذه الصفوة تستطيع التصرف على هذا النحو، فسوف أدمر العالم. ولأنني، لسوء الحظ، لا أمتلك الوسائل التي تبيد الأرض عن بكرة أبيها، فسوف أختار هدفاً على قياس اشمئزازي.

منذ ١١ أيلول ٢٠٠١، لم يعد أحد يشك بالعثور على أفضل وسيلة تدمر الإنسانية تدميراً فعالاً. هل من الضروري إلى هذا الحد أن يسافر جواً عدد كبير من الناس من مدينة إلى أخرى كل يوم؟ ألسنا بذلك نستفز المجنون الذي يفور ويمور في داخلنا؟ كيف لا نحلم باختطاف تلك الطائرات التي تهزأ بنا من فوق رؤوسنا، ونوجهها نحو صرحٍ يغمرنا تدميره فرحاً؟

بقي أمامي تحديد هذا الصرح. عندما نكون في رحلة هلوسة تضمحل تعقيدات الواقع وكأنها لم تكن: لم أتساءل عن انعدام خبرتي فيما يخص قيادة الطائرات. سُويت هذه المسألة في جملة واحدة: لست أغبى من أفراد ١١ أيلول ٢٠٠١. أما بخصوص الهدف، فسوف أبرهن بأن طموحي يفوق طموحهم كثيراً.

ينبغي أن تحس أسترولاب بأنها المستهدفة. كلا، لن أحطّم طائرة البوينغ فوق مبنى صغير في حي مون أورغوي. أنا في الأصل من باريس.

شاهدت في أسفاري أبنية رائعة، لكنها لا تنتمي إلى مخيلتي. لذلك أقصيت من تفكيري "تاج محل" الملائم تماماً بصفته رمزاً للحب. وبما أنني كنت أفتش عن هدف باريسي، فكّرت في أن أقوم بعمل ينم عن ذوق رفيع بتنظيفي المدينة من ثآليلها. ذهبت في تفكيري إلى برج مونبارناس، وإلى فندق شيراتون مونبارناس، وإلى برج جوسيو الذي يمثل العبث بامتياز، وقد نُظفّ مؤخراً من مادة الأميانت السامة، ولو محي من الوجود لكان ذلك سهلاً وأقل تكلفة.

يدفعني ضميري دائماً إلى التفكير بالخسائر الجانبية، ففي حالة فندق الشيراتون سيلحق الانفجار أضراراً بمقبرة مونبارناس. وأنا ككل القتلة أحترم الموتى أكثر من احترامي الأحياء. وكيف أدمر برج جوسيو من دون أن أدمر معه حديقة النباتات العزيزة على قلبي؟

ثم لا ينبغي الوقوع تحت إغواء الخير، فالأمر يتعلق بالتدمير، ولا يتعلق باستمالة الرأي العام؟ من جهة أخرى، إذا أردت أن يكون لتدميري علاقة بأستيرولاب، فيجب أن أدمر شيئاً جميلاً. وهل ندمر غير ذلك؟ لا يوجد اعتداء بشري واحد ضد البشاعة. إنها لا تستهوي ما فيه الكفاية لكي تستوجب عناءً كبيراً. ومنتهى البشاعة لا يثير سوى السخط العقيم. وحده الرائع يستفز الحماس الضروري لتدميره. لقد أضرم راهب ميشيما النار في الجناح الذهبي، ولم يضرم النار في جناح من الأجنحة الجديدة التي شوهت كيوتو. فمقولة أوسكار وايلد بأن "كل واحد يقتل ما يحب" تجد تطبيقها في المجال العمراني.

باريس لا ينقصها الجمال. استبعدت متحف اللوفر لضخامته، إذ كيف يمكن الاختيار بين جناح الرسامين الفلامنديين وجناح النحاتين الإغريق؟ أفكار كثيرة عبرت تفكيري: حدائق القصر الملكي، المرصد

الفلكي، برج سان جاك، كاتدرائية نوتردام. ولكن كان يبدو لي دائماً بأن كل هذا مجرد من المعنى. كنت أفتش عن صرحٍ يرتبط بشكلٍ أو بآخر بأسترولاب. ماذا لو سألتها؟

- هل يوجد في باريس صرح ترين فيه بطاقة تعريفك؟

رمقتني بعينها، وأمعنت في التفكير. كانت لا تزال في هلوستها فلم تتفاجأ بهذا السؤال. كان بؤبؤا عينيها الرائعتين المتسعان بشكلٍ كبير يخرجان من مكانيهما.

- بكل تأكيد. ألا تعلم ما هو؟

- لا أدري. هل هو سراديب الأموات؟

انفجرت ضاحكة. سألت:

- ما هو الصرح الباريسي الذي لعبت فيه الأبجدية الدور الأهم؟

- ليس لدي أدنى فكرة عن ذلك.

- فكر بالحرف A

التفكير بحرفٍ أبجدي وأنت في رحلة الهلوسة كأنك تتصدى لإمبراطورية، وخصوصاً إذا كان هذا الحرف هو الـ A، وهو أقل الحروف براءة. ملأت هلوسة على شكل حرف صوتي أسود رأسي بصوتٍ ضخمٍ، شكلت حرارة الهاتف سلسلة متصلة من الـ AAAAAA، غابات من الـ A تمشي مشية سريعة على سيقانها، مشهرة خناجر غريبة على شكل حرف A. هناك خناجر ماليزية على شكل حرف A، وهي أسلحة تتمتع بهيبة ولا تستخدم في قتل من هبّ ودبّ، فالإنسان العادي يقتل خنقاً بطريقة غبية، وحدهم الأمراء يستحقون القتل بخنجر حاد على شكل حرف A. أجهل كم دام تسلط هذا الحرف الصوتي الشهير على تفكيري.

نفد صبر أسترولاب، فأردفت قائلة:

- ليس هذا بسؤال صعب. فالحرف A أوحى ببناء أشهر صرحٍ في باريس.

- قوس النصر؟

- هيا! إنه برج إيفل، فهو على شكل حرف A

أُسقط في يدي. كنت كمن اكتشف العالم.

قالت:

- صُدمت بشدة من عدد الباريسيين الذين يجهلون أصل الشعار المعماري لمدينتهم. كان غوستاف إيفل متيماً بامرأة تدعى أميلي، ومن هنا جاء تفكيره بالحرف A الذي يهيمن على باريس منذ أكثر من قرن.

- أحقاً ما تقولين؟

- نعم. لو كانت تلك المرأة تدعى Olga لتغير شكل الشعار.

بجانب أليونور تمددت أسترولاب فوق أرضية الغرفة، وأغمضت عينيها. غابت الراقدتان المهلوستان في تواصلهما مع الكائن الأسمى.

بقيت وحيداً، مصعوقاً بهذا الخبر. كنت أخشى أن تكون عمليتي التدميرية مجردة من المعنى، وإذ بي أعلم بنشوة وخوف أن مأثرتي ستجمع بين الرمزية والواقعية. تجلى لي المشروع في بداهته الكاشفة للنفس: سأختطف بكل بساطة طائرة وأصدم بها برج إيفل ليمّحي من الوجود الحرف A الذي يحيلني إلى أستيرولاب وأليونور. من الأفعال ما يعكس صورة الفرد بشكلٍ تعجز عنه أنقى المرايا. من الطبيعي أن أواجه بعض الصعوبات التقنية التي يجب التغلب عليها. سأعود إليها فيما بعد. هذا لا يهمني بتاتاً. تصيبني فكرة تدمير برج إيفل بالنشوة، إذ يجمع بين المعنى والجمال: أهناك ما هو أجمل من برج إيفل؟ لطالما عشقته من دون أن أعلم بأنه بناء للحب. ومعرفة قصته الحميمية تزيدني عشقاً له. فما أروع غوستاف إيفل الذي أودع حبه الوحيد في أضخم عمل أوصي به في حياته! سأفعل الشيء نفسه، لكن بصورة سلبية: سأودع حبي الوحيد في أضخم عملية تدمير في حياتي. حسرتي الوحيدة هو أنني لن أرى من الخارج اللحظة الرائعة، لحظة تفجير الطائرة للسيدة الحديدية، ولكن لا أحد سيرى ما سأرى: سأرى البرج

الصغير وهو يكبر شيئاً فشيئاً، يدنو مني إلى أن نتلاقى في قبلة، في أعنف قبلة عرفها التاريخ، هي قبلة الموت.

علمت منذ البداية بأن أصعب ما في الأمر ليس هو السيطرة على طاقم الطائرة أو تعلّم أساسيات القيادة. الرهان الوحيد هو الصمود: ألا أستيقظ غداً، وأنا أعتقد بأن ما أزمعت علية في الأمس كان هذياناً. ولكي أتحاشى خطر الهبوط أخذت أردد العبارة الجوهرية: رحلة الهلوسة على صواب. ينبغي أن أرددها بصورة دائمة فور زوال الأعراض.

ما سيساعدني في ذلك هو إيماني الدائم بهذا الأمر: لا يكون الفرد مصيباً على الإطلاق خارج رحلة الهلوسة. حين تكون حالتنا الفكرية في حالة الصوم طبيعية، يولّد دماغنا الذي بلغ أشده التفاهة بالأطنان، وعبثاً نبحث في طياتها عن الجمال أو الشرف أو شرارة العظمة أو العبقرية التي يفخر بها الجنس البشري. وحتى الحب لا يستمد من النفس سوى تلك الومضات المعروفة: دارات متقطعة لبضع ثواني، أما النشوة فلا تثير الاهتمام لأكثر من عشر دقائق، والوقت المتبقي ليس سوى أنواع بلهاء من السُكر.

تدوم رحلة الهلوسة ثماني ساعات. تتيح لنا مثل هذه المساحة الزمنية المجال للإبداع والتفكير والعمل بالمعنى المطلق لكل كلمة، وخصوصاً أن ثلث النهار هذا لا يقاس بالمعايير المتعارف عليها، وهو يعطينا انطباعاً بأنه يمتد على فترات زمنية بروستية (نسبة إلى بروست).

تزن ذكرى اليوم العادي شعرة، وتزن ذكرى رحلة الهلوسة كبة من الشعر، نقضي العمر كله في فرقها عن بعضها البعض. يمثل النشاط العقلي الطبيعي وصمة عار على جبين الذكاء، ولا يستحق أن يسمى

فكراً. أما رحلة الهلوسة فهي على صواب، إذ تجعلنا ننسى المبتذل، وتعيد إلينا الصدمة الأصلية لكل شيء.

أعرف عدداً قليلاً من النساء تبدأ أسماؤهن بحرف الـ A: أستولاب، أليونور، أرتيميس ومعبدها، أميلي إيفل وبرجها. لم يظهر هنا من باب الصدفة الحرف الصوتي الأول الذي أشار رامبو إلى فظاعته. سيصطدم حرف الـ A العملاق الذي يهيمن على باريس بعنفوان رغبتي.

لن يُقال بأن حبي لأستولاب لم يرتو، فالفعل الجنسي الذي مُنعت منه في غرفة، سأتمه وأنا أحلق فوق المدينة على ارتفاعٍ منخفض.

في حوالي الساعة الثامنة مساءً عادت المرأتان الشابتان إلى الأرض الصلبة وهما رائقتا المزاج. بدت أليونور سعيدة على نحوٍ خاص، وأمطرتني بوابل من القبلات: احتملت قبلات ذات الشفة المشقوقة، على أمل أن تغسلني قبلات أسترولاب منها، لكن هذه الأخيرة كانت أكثر اعتدالاً.

سألتها:

- هل انبسطت؟

- جداً، ولو أن نواياك قابلة للنقاش.

كانت الغبية تجهل أن كلاماً كهذا يزيد قراري ثباتاً. في المطعم المقابل، هبطت علينا وجبة "الكوسكسي" في الوقت المناسب. اكتشفت المرأتان سعادة الطعام الحقيقية بعد عودتهما من رحلة الهلوسة. أخيراً، يثب الغذاء في الفم فرحاً كضفدعة بعد أن تطهر من الشعور بالذنب والنواهي التي دنسته منذ آلاف السنين. من العبث أن يشعر المرء بثقل معدته بعد ممارسة كهذه، فالأكل ليس سوى لعب. كنت أقل حيوية من

الصديقتين في المشاركة في اللعبة. يصعب ابتلاع الطعام عندما تكون هناك طائرة في المعدة. كنت أخشى أن يضعف قراري، وإذا بي أكتشف بأنه يحكم السيطرة. سأُعدم حريتي ما لم أنجز هذا الفعل: أحسست بأنني مبرمج كقنبلة موقوتة.

لن يحملني سلوك أستارولاب على العدول عنه. روت رحلتها بحماسٍ وجدته ساذجاً. وبالرغم من أنني عرفت بأن جميع المبتدئين يتصرفون هكذا، لم أحس بالتعاطف أو التساهل..

من لا دخل له في أمر يبوء بحقدٍ أكبر ممن لهم دخل فيه. أدركت ما يتسم به حقدي من جور، فقررت الابتعاد عنها لأن قطع العلاقة معها يؤجج لهيب حبي. قلت لنفسي: "من المحتمل جداً أنها لن تلحظ ذلك".

لماذا يزيد المرء حياته تعقيداً؟ تعرفت قبل بضع سنين على قائد طائرة ركاب يدعى مكسيمليان فيجيه. اتصلت به هاتفياً وسألته مباشرةً عن كيفية قيادة طائرة بوينغ ٧٤٧. أجابني ببساطة شديدة. دوّنت معلوماته. كررت بصوتٍ عالٍ تلك المعلومات قبل أن أطرح عليه السؤال التالي:

- هل تعتقد أنني بهذه المعلومات سأفلح في قيادة طائرة البوينغ؟

- كلا. ينبغي أن تتدرب على الجهاز الذي يقلّد جهاز الطيران الحقيقي.

- أين أجد هذا الجهاز؟

دلني على مكان وجوده.

سأل بشيء من التهكم:

- هل تريد أن تقود طائرة ركاب؟

- كلا. أكتب رواية، وبطلها يحضّر لاختطاف طائرة. شكراً، مكسيمليان.

لماذا يفرط المرء في التفكير؟ اتصلت بالشخص المسؤول عن جهاز التدريب الذي أوصاني به مكسيمليان فيجيه. أعجبته فكرة المشاركة في كتابة رواية، فدعاني. وبينما كان يشرح لي على الجهاز، كنت أنا أدوّن كل شيء. فجأةً، سحب القلم من يدي، وصحّح لي غلطة إملائية كنت ارتكبتها للتوّ.

ختم قائلاً:

- عندما تنتهي من كتابة الرواية، لا تنسَ إدراج اسمي في قائمة الشكر.

من أراد الشر لا يعجزه شيء عن فعله: حسبك أن تشكر من يمدّ إليك يد المساعدة. كان مساعدي يدعى باستيان.

أصرّ أن يدربني على القيادة بمفردي:

- إذا لم تتدرب، فسوف يتبين أن بطلك لا يعرف شيئاً عن قيادة الطائرات. ينبغي عدم إغفال هذا الأمر.

أحببت حباً جماً وثبة التضامن البشري التي أثارتها مبادرتي. طبعاً، لا يعلم هؤلاء الناس بأنهم يساعدون مجرماً. لو كانوا يعلمون فهل كانوا سيتصرفون بشكلٍ آخر؟

كان باستيان مصيباً في أن التدريب النظري لا ينفع كثيراً من دون التدريب العملي. جلّ ما تعلمته كان على جهاز التدريب المقلّد.

لم أتعلق يوماً بألعاب الفيديو، لكنني أحببت كثيراً ذاك الجهاز.

طبعاً، لم أصبح قائد طائرة ركاب بفضل تلك الجلسات التدريبية، ولكن من الآن فصاعداً ينتابني شعور، عن خطأ أو صواب لا أدري، بأنني أهل لمهمتي.

حين اشتريت بطاقتي لهذا اليوم، ألقيت نظرة على حسابي المصرفي: أربعة آلاف يورو تقريباً. لا يكفل هذا المبلغ أن أعيش كملياردير للأسبوع الذي كان قد تبقى لي، لكنه يكفيني للطعام والشراب.

دعوت أسترولاب وأليونور إلى الغداء في مطعم "البرج الفضي". لذا لن أموت قبل أن أتذوق طبق البط الشهير.

سألت المرأة التي أصبحت أقل حضوراً في تفكيري:

- هل ربحت باللوتو؟

- كلا، كنت مديناً لكما بغداء، ولم تسنح لنا فطور الهلوسة بتناوله وقتئذٍ.

- ولكن الغداء هنا مكلف جداً.

كانت مائدتنا بالقرب من النافذة التي أشرت إليها بذقني قائلاً:

- إنه المطعم الوحيد في باريس الذي يطل على كاتدرائية نوتردام من الخلف.

أطالت النظر ثم قالت:

- حقاً إنها لا تزال أجمل من الخلف.

غدوت أكثر تحفظاً مع أسترولاب من دون تصنع. لم أعد أشعر بعذاب حبها، وتحسنت تبعاً لذلك طريقة سلوكي معها. بدت متأثرة. بعد الغداء عرضت علي أن أرافقهما إلى البيت، فرفضت. لم تحتجّ لكنها بدت حزينة لرفضي دعوتها. قلت لنفسي بسخرية لو كانت وجهت لي الدعوة قبل أسبوع لكنت طرت فرحاً، ولكانت أيام برج إيفل غير معدودة. الآن فات الأوان: لم يعد حزن أسترولاب يؤثر فيّ. تحب النساء دائماً في الوقت غير المناسب.

صباح أمس، استلمت من أسترولاب هذه الرسالة. أخرجها من جيبي لأنسخها:

زوئيل،

لقد تغيرت. هذا يدعو للأسف، لكنني لا ألقي عليك باللوم. لا بد أن لك معاذيرك. ما ظننته برودة من جانبي ليس سوى ردة فعل قلقة لامرأة اكتشفت بأنها محبوبة أكثر مما كانت تأمل. هذا لا يعني أن ذلك لم يقع في نفسي موقع الإعجاب، بالعكس، ولكن تلقي الجمال بأناقة طبيعية فن لم يدرّس في أي مكان، ولم أقف أنا على سره دون أي امرأة أخرى. إن كنت خسرتك فأنا منسحبة، شاكرةً لك الأوقات الحلوة التي قضيناها سوية. وإن كان لا يزال هناك بصيص من الأمل في أن نعود كما كنا، فأنا بانتظارك. وأعدك من الآن، إن لم أكن أكثر حنكة، بألا أخفي عنك القلق الجميل الذي يعود الفضل فيه إليك.

أسترولاب

هناك طريقتان لقراءة رسالةٍ كهذه: إما البكاء أمام هذا الجمال المبهر، وإما القهقهة أمام هذه المهزلة المفرطة. لا أزال أملك ما يكفي من

الحب لتفجّر هذه الكلمات رأسي كسدادة زجاجة شمبانيا، وكذلك ما يكفي من وضوح الرؤية لأسمع هزليتها المحتملة. لا يكون المرء متسامحاً حقاً إلا عندما يكون عاشقاً متيماً. وما أن نحب قليلاً حتى تظهر نزعتنا العدائية. كنت مبعثراً بين هاتين الحالتين.

في الوقت نفسه، كان لنسخ هذه الرسالة مفعوله. النسخ هو تفعيل قوة الكلمات، فالمقطوعة الموسيقية يكون وقعها في النفس أبلغ عند العزف منه عند القراءة.

ألفيت نفسي واهناً في قراري. أيتها اللعينة أسترولاب، لن أرضخ. أعلم تمام العلم أن العدول عن مشروعي سهل، إذ حسبي أن أغادر المطار وأعود إليك، وأنا أعتقد هذه المرة بأن وجود صديقتك المعتوهة لن يمنعني من بلوغ مرادي. لقد بلغتِ حالتي التي كنت عليها هذا الشتاء. لطالما أردتك هكذا، ولطالما اشتهيت أن أراك متشنجة قدر تشنجي.

ولكن سأركز جهودي، ولن أستمع إلى الفيض العاطفي الذي يدفعني نحوك. ما يصل في غير أوانه لا يستحق الاهتمام. ومن ثم فقد أقسمت على عدم الرجوع عن قراري. قد يفهمني عوليس الذي لم ينخدع بغناء حورية البحر. إن مشكلة الحوريات هو أنهن لا يغنين مطلقاً في الوقت المناسب.

قريباً تحين ساعة الصفر. سأتوجه إلى المرحاض وحقيبتي في يدي. كنت ابتعت لنفسي من السوق الحرة زجاجة كريستال من ماركة روديرر. قد يسأل سائل لماذا اخترت تلك الماركة، إذ أن أرخص ماركة شمبانيا تفي بالغرض. اكتشفت أن جميع الضحايا يستحقون الموت بماركة فخمة. سأكسر الزجاجة فوق مقعد المرحاض، وسأجمع شظايا الزجاج الكبيرة مع عنق الزجاجة التي سأمسكها في يدي لتكون خير

سلاحٍ أتسلح به. يشقّ علي إراقة هذا الشراب، ولكن ليس في اليد حيلة. ليس وارداً شرب جرعة واحدة منه، فأنا أحتاج أن أكون بكامل وعيي. وعلى كل حال لن يكون رحيقه مثلّجاً بما فيه الكفاية.

أسترولاب هي الشمبانيا الوحيدة التي أكتفي ببرودتها. خسارة! سأقضي نحبي من دون خمر.

عندما ستقلع الطائرة، سأدخل قمرة الطيار وأذبح على الفور الطيار ومرافقه بعنق الزجاجة. قلت لنفسي: بما أنني لا أعلم إن كنت قادراً على مثل هذا الفعل، فالحل الوحيد هو عدم التفكير في الأمر. قد يحطّم الاستعداد النفسي قواي مهما كان بسيطاً.

يجب ألا تكون الحركة التي سأنفذها معقدة جداً: رأيتها مئة مرة في السينما، وتدربت عليها ألف مرة أمام المرآة. من المهم عدم التفكير في شيء. عملت لهذه الغاية حساباً بحيث أستعيد بذاكرتي في تلك اللحظة مقطوعة موسيقية لشوبرت بعنوان "رحلة الشتاء"، لأنه لا توجد أي علاقة بين ما أقدم عليه والمقطوعة.

وبعد إنجاز المهمة سأتولى قيادة الطائرة بنفسي. أشعر بالفرح: هذه هي الوسيلة التي سأتحقق بها من صحة المعلومات التي أخذتها من مكسيمليان فيجيه، كما سأتحقق من تدريبي على الجهاز المقلّد. في جميع الأحوال ستكون الخاتمة اصطداماً في السماء. إن برج إيفل أفضل من فندق من الدرجة الثالثة في حي غونيس وأقل ابتذالاً منه. في الحقيقة، هل حكاية برج إيفل مع الحرف A صحيحة؟

سأغلق باب قمرة القيادة من الداخل. سأكون الربان الوحيد بعد الله على متن الطائرة. أعتقد بأن إحساسي سيكون رائعاً.

وإذا جرت الأمور كما هو مرسوم لها، سأقود طائرتي إلى باريس. اليوم هو ١٩ آذار، والسماء صافية، ولا يزال نور الشتاء خالصاً: ستكون الرؤيا مدهشة.

أحب المدينة التي رأيت فيها النور، وسأحبها أكثر من أي وقت مضى. غالباً ما لاحظت هذه الظاهرة، فلكي تحب مكاناً ما ينبغي أن تكون قد تأملته من الأعلى، وهذا هو السبب الأكيد الذي يجعلنا نتصور الله في السماء: وإلا كيف يفعل كي يحبنا؟

سأصل من الشمال، وسأنعطف قليلاً جهة اليمين، وسأحلق فوق قوس النصر. وخلف التروكاديرو سيكون حرف الـ A العملاق بانتظاري بقدمٍ ثابتة. سأحبه بهذا الحب الذي نستمده مما هو تحت رحمتنا.

آمل، وأقولها بصدق، ألا يشوه الانفجار قصر غالييرا البديع، وألا تصبح مقولة بول فاليري الرائعة المحفورة على قصر شايو متعذرة القراءة.

بعد قليل ستدعو المضيفة الركاب للصعود إلى الطائرة. لا أريد الصلاة لأتسلح بالشجاعة، لأن هذا يفترض بأن الشجاعة قد تخونني.

لا أريد تصور الفشل في مهمتي. أعلم أن النجاح سيكون حليفي. أغمض عينيّ، وأركّز انتباهي. أحس الآن بضخامة برج إيفل. أما أنا فأتوحد مع طائرتي لدرجة أبلغ معها الرعشة. لم أحس بكياني قط مثلما أحس به الآن. هذا هو الحب بلا أدنى شك.

ها أنا داخل الطائرة. يرحب بي المضيفون الذاهبون إلى حتفهم. بعد قليل ستقلع بنا. عندها يستطيع الربيع أن يبدأ.

من منشورات دار علاء الدين

- يوميات سنونوة
  أميلي نوتومب
- ذكريات غيشا
  آرثر غولدن
- القدح المشعور
  آلان مابانكو
- حواء تخرج من أنقاضها
  آناندا ديفي
- زنوبيا ملكة تدمر - رقص الآلهة
  أ. ب دانييال
- الحب المتبادل بين الزوجين
  البرتو مورافيا
- أرخبيل غولاغ
  الكسندر سولجنيتسين
- مساء ذبول الوردة
  اردال أوزر
- خبز فوق الماء
  اروين شو
- فيل الوالي
  إيفو أندريش
- الحمامة
  باتريك زوسكيند
- قرب النهر أبكي
  باولو كويلهو
- محارب النور
  باولو كويلهو
- بؤس الشيطان
  بريم ستوكر
- جاز
  توني موريسون
- أخوية اليقظانين
  جاك اتلي
- الأفريقي
  جان ماري لوكلوزيو
- النير
  جميل سلوم شقير
- مشاهد من حياة كهنوتية
  جورج إليوت
- ليس بعد الآن
  جورج حاجوج
- فيجان محاكمة وقتل لوركا
  جوزيه لويس دي فيلالونغا
- اللؤلؤة
  جون شتاينبك
- مدير الليل
  جون ليه كاريه
- مليون قطعة صغيرة
  جيمس فراي
- النطع
  جينكيز إيتماتوف
- مرآة الحبر مختارات
  خورخي لويس بورخيس

مكتبة نوميديا 37
Telegram@ Numidia_Library

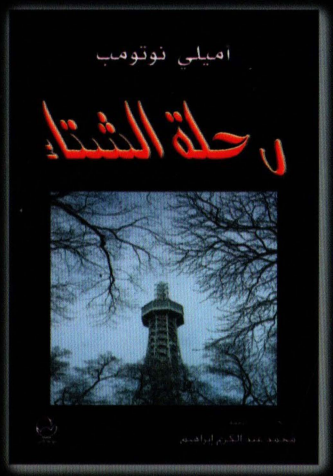

Le Voyage d'Hiver

"تشير الساعة الآن إلى التاسعة والنصف. أمامي أربع ساعات لأشبع هذه الحاجة الغريبة. وهي كتابة ما لن يقرأ. يبدو أننا ساعة الموت نرى شريط حياتنا في غمضة عين. عما قريب سأعرف إن كان هذا صحيحاً. يعجبني هذا الاحتمال. ولا أحب أن أفوت على نفسي أفضل ما في قصتي مهما كلفني ذلك".

فما هي تلك المذكرات التي يكتبها من ينوي تفجير طائرة في الساعات الأربع التي تسبق فعلته؟ ما هي المشاعر التي تنتابه تجاه نفسه وأهله وأصدقائه ومجتمعه؟ ما الذكريات التي تراوده في هذه الساعات القليلة التي سينهي بعدها حياته وحياة أبرياء لا ذنب لهم سوى أن رافقهم في الطائرة ذاتها رجل إرهابي ينوي ارتكاب جريمة غريزية عن سابق قصدٍ وتصميم؟ هذا ما تسرده لنا رحلة الشتاء.

"خلال ساعات معدودة ستنفجر طائرة إثر قيامي باختطافها. لن يقل عدد الضحايا عن المئة رغم اتخاذي للحيطة والحذر. أكتب. وهذا ليس تهكماً. بأن جميع الضحايا أبرياء".

ISBN 978-9933-18-694-4
9 789933 186944

يطلب الكتاب على العنوان التالي: دار علاء الدين ـ سورية ـ دمشق. ص.ب ٣٠٥٩٨ هـ ٥٦١٧٠٧١ ف ٥٦١٣٢٤١
البريد الالكتروني ala-addin@mail.sy الموقع الالكتروني www.zoyaala-addin.com